
مذاهب وشخصيات
علماء
في وجه الطغيان
بقلم: محمد رجب البيومي

مذاهب وشخصيات

علماء

في وجه الطغيان

وَلتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير
ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
وأولئك هم المفلحون

بقلم
محمد رجب البيومي

تقـــديم

سبق للدار القومية أن نشرت للمؤلف كتابا بعنوان «ابن حنبل» ، وكان له صداه الطيب عند جمهرة المثقفين ، واليوم نقـــدم له كتابا آخر «علماء فى وجه الطغيان» حيث اتخذ المؤلف مواقف لأعلام من التـــاريخ الاسلامى فيها روعة التمسك بالحق ، والدفاع عن المبدأ ، وان كلفتهـــم أرواحهم ٠

هذه هى البطولة الحقة التى تتجلى فيها النفوس الكبيرة ، وتتخلق العظمة الروحية ٠ وتاريخنا الاسلامى حافل بعظمـــاء الرجال الذين لم يستذلهم المنصب أو السلطان ولم يغرهم المال ، ولم تنل منهم رهبة الموت أو بريق السيف بل قالوا كلمة الحق ، قالوها عالية مدوية فى وجه الطغيان وبوقوفهم هذا الموقف النبيل استطاعوا أن يكسروا من حدة الجبروت ، وأن يردوا الظالم عن ظلمه وأن يبينوا بالمنطق والحجة مبلغ مافى قولهم من صحة وسلامة ٠

ولا شك أن ناشئتنا فى أمس الحاجة الى التعرف على مواقف البطولة التى وقفها عظماؤنا حتى يستقر فى نفوسهم التمسك بالحق والدفاع عن المبدأ ، وبخاصة فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا التى نقيم فيها بنـــاء مجتمعنا الجديد ، وندافع عن المبادىء الاشتراكية التى اتخذناها دستورا لنا ، والتى تحاول الرجعية بكل الوسائل أن تحول بينها وبين الاستقرار ٠

ان المبادىء والرسالات لايمكن أن تنتشر وان تسود الا بالدفاع عنها والتضحية فى سبيلها والنضال من أجلها ، وهذا يتطلب ايمانا عميقا ، واخلاصا مكينا وكفاحا رهيبا كهذا الـــكفاح الذى عرض المؤلف أمثـــلة رائعة له ٠

وناشئتنا فى حاجة أيضا الى أن يتعرفوا على هذه المواقف البطولية ، حتى يؤمنوا بعظمة آبائهم وأجدادهم ، وانهم لايقلون شـــأنا ان لم يفوقوا عظماء الغرب فى الدفاع عن العقيدة والمبدأ ٠

والله الموفق والمعين

محمد عطا

مقدمة

حين أصدر الكاتب الكبير الاستاذ توفيق الحكيم مسرحيته التاريخية «السلطان الحائر» صادفت قبولا رائعا لدى القراء ، اذ صورت بعض المواقف الجريئة التى وقفها العالم البطل عز الدين بن عبد السلام حين تحدى الظلمة الطغاة من الملوك والأمراء ، ورفع راية الحق فى وجوه أعدائه غير هياب ، وقد مثل بمواقفه الباهرة أدوار المصلحين من الأنبياء وذوى الرسالات ، فكان قمة شامخة فى دنيا البطولة والايمان ٠

وقد قابلنى من جمهرة المثقفين من يدهش لبطولة العز ويعده فذا غريبا فى تاريخ العلماء ، ويعتبره من الشاذ النادر الذى لاتتمخض الاجيال عن نظيره الا بعد عسر جاهد ، وشح ضنين ، مع أن التاريخ الاسلامى حافل بأمثاله ممن صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فأعلوا كلمة الله فى معترك الطغيان ٠

لذلك رأيت أن أفرد لهؤلاء الأبطال كتابا وجيزا يتحدث فى سرعة طائرة عن بعض روائعهم الباهرة ، متجها الى تصوير هذه الأدوار الحاسمة من مواقفهم الفذة دون اسهاب فيما عداها من جهودهم العلمية والفكرية لان كل عالم من هؤلاء جدير أن يفرد له كتاب مستقل بتاريخه ،على نحو ماصنعت بتاريخ الامام احمد حين أفردت له سفرا خاصا بشخصيته ، وحسبى هنا أن أشير وأوجه ، تاركا لغيرى المزيد من التحليل والتشريح ٠

ولست أزعم أن هؤلاء الاعلام هم جميع من تعطرت ببطولتهم صحف التاريخ ، فهناك عشرات من أمثالهم يستحقون الدراسة والتسجيل وفى مكنة الباحث الضنيع أن يجد فى كل حقبة من الحقب السالفة نمطا رائعا من ذوى البسالة العجيبة فى طبقات العلماء ، وهأنذا أخطو الخطوة الاولى راجيا أن أواصل السير مع غيرى ، ممن يعرفون من واقع هؤلاء الأئمة مايضم حيواتهم نماذج حية لشبابنا المثقفين ، ممن يستغربون مواقف العز بن عبد السلام ، ويعتبرونها استثناء يخرج على القاعدة ، لا نمطا مألوفا فى كثير من حيوات رجال الاسلام ٠

ان تاريخنا الاسلامى الرائع لم يكتب للآن على وجهه الصحيح ، اذ أن الكثرة من مؤلفى القرون السابقة قد اتجهت الى تسجيل مواقف الخلفاء والوزراء والأمراء ، وحسبت ذلك أنفس مايقال فى مضمار التاريخ ، ومن

يتعرضون من كتاب (الطبقات) لتواريخ العلماء والمصلحين لا يعمـــدون الى التفصيل الشافى لكل موقف خالد ، ولكنهم يلمون به المامة المتسرع العجول ، وعلينا الآن أن نتجنب هذا التقصير المعيب ، فنفسح المجـــال لذوى العظمة الباهرة ممن قدروا تبعات البطولة وحملوا رسالة العلم على وجهها الصحيح ٠

لو أن تاريخنا الباهر قد كتب كتابة وافية ، لما رأينـــا من شباب الجامعات من يعد العز واحدا لاثانى له ، بل من يجهل العز حتى يلفته اليه كاتب مسرحى شهير ! فهل جاءهم أن زملاء العز من ورثة الانبياء قد مثلوا دوره البطولى على مر التاريخ ، فسموا الى قمم الابطال ؟ هل جاءهم أن سعيد ابن المسيب قد حارب الخلافة الأموية ، وترفع على عبد الملك وولى العهد كيلا يسير مع الباطل فى طريق ؟

هل جاءهم أن سعيد بن جبير قد خاصم الحجـاج ، وأعلن الثورة الجريئة على طغيانه ، ثم استهزأ به فى ساحة المحاكمة بين السيف والنطع حتى ظفر بالاستشهاد ؟

هل جاءهم أن أبا حنيفة قد اعتز بالله حين حارب الدولة الاموية فى عناد ، ثم كافح أبا جعفر المنصور حين رآه يحيد عن الجادة المستقيمة ، فانهالت السياط المائة على جسده الناحل جلدا وتعذيبـــا ، ولم يخش الا الله ؟

هل جاءهم أن ابن حنبل قد واجه طغيان المأمون والمعتصم والواثق بنفس قوية عزيزة ، وتحمل عذاب السجن والسوط حتى أغمى عليه مرات دون اكتراث ؟

هل جاءهم أن ابن السكيت قد استشهد فى ساحة الحق ، ولقى الله راضيا فخورا بمصرعه الباهر على رءوس الأشهاد ؟

هل جاءهم أن العز بن عبد السلام قد ترك من العلماء مدرسة جريئة حاربت طغيان سلاطين المماليك وملوك التتار ، وكان من تلاميذه الأبطال محيى الدين النووى ، وابن دقيق العيد وابن تيمية وسواهم من الأفذاذ ؟

هل جاءهم ثبات المنذر بن سعيد فى وجه الناصر بالأندلس أو روائع عمرو بن عبيد ويحيى بن يعمر وابى جعفر البهلول بالكوفة وبغداد ؟

هل نظروا الى تاريخهم القريب ، فعرفوا جهاد علماء الأزهر فى عهد المماليك والفرنسيين ، وألموا بنضال الجبرتى والعروسى والمنصـــورى والدردير ؟

هل جهلوا باعث الشرق ومنقذه جمال الدين الأفغاني ، او نسوا ماشاهدوه عيانا من روائع عبد المجيد سليم !

أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون !

واني حين أبسط هذه المواقف في صفحات هذا الكتاب أشعر أني أكتب دروس اخلاق وتربية ، قبل أن أسجل حوادث أناس وعصور . لان القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة جديرة أن تجعل من الناشئة رجالا بسلاء ، يتخذون من أسلافهم الغابرين أنماطا تحتذى ، وكواكب تهدى . فتتحقق بذلك وراثة العلماء للأنبياء اذ لاتقتصر على المعرفة والافتاء بل تتجه الى العمل الجرىء والاصلاح المثمر والاستمساك بقول الله عز وجل «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون» .

أحمد رجب البيومى

سعيد بن المسيب يتحدى الخلافة

سيرة سعيد بن المسيب تثير العجب والاعجاب ، فقد كان رضى الله عنه ، يعرف قدر نفسه ، ويزن قيمة علمـــه ، وقد ارتفع بغرائزه عن الرغبات البشرية المتهافتة ! وسما بروحه الى أجواز العزة والكرامة ، فعاش كريم النفس حميدالأثر ، وكانمثلا رائعا تقدمه التربية الاسلامية الصحيحة الى عشاق العزة والكرامة ، فما تعاظم يوما على فقير محتاج ! وما خشـــع لحظة لطاغية جبار ، بل كان يعظم أهل المسكنة ويسعى فى حوائجهم باذلا من جهده وماله – على تقدم السن وتأخر العافية – مايستطيع ، أما الطغاة من الملوك ، والفجرة من الولاة فقد جابههم مجابهات سافرة ، وامتنع عن لقائهم ومجالستهم ، وزاد فندد بفضائحهم المنكرة ومظالمهم الآثمة ، وبهذه السيرة الرفيعة ، قد نهج نهجه الصالح فى الحياة ، فأرى الناس كيف يكون عالم الاسلام رحيم القلب مع الضعفاء ، عزيز الجانب لدى الأقوياء ، فلا تأخذه فى الله لومة لائم ، بل يهتف بالحق الصريح ، وان لمعت الأســـنة واشتجرت الرماح .

وقد نشأ الرجل نشأة مباركة ، فزكا غرسه فى تربة طيبة ، وشافه كبار الصحابة ، وجالس اهل الورع والخشية من جند الله واتجه الى الفقه الاسلامى يبحث مسائله ، ويناقش فروعه ، والى الحديث المحمدى يصحب رجاله ، ويفحص اسناده ، وكانت المدينة لعهده زاخرة بأعلام الشريعة من صحابة رسول الله ، فسمع من على وابن عمر وسعد وابن عباس وأبى الدرداء ، وصهيب وجابر وأبى سعيد ، واسماء ، وعائشة وأم ســـلمة وغيرهم ؛ ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه ؛ أما أبو هريرة شيخ المحدثين ، فقد لزم مجلسه ، واستظهر أحاديثه ، وبلغ من نفسه مبلغا كبيرا ، حتى تزوج ابنته منساقا ، بدافع الرغبة الكريمة ، فى مصاهرة انســان يحفظ حديث رسول الله ! وقد تلقى – بمخالطته صحابة رسول الله – دروســا رفيعة فى الأخلاق العالية ، والكرامة الأبية اذ شاهد بعينيه ما أســـبغه الاسلام من العزة على أناس لم يذعنوا لغير الله ، ورأى من حرية العقيـدة وشدة الحمية وقداسة المساواة مارسم له الطريق السوى للمؤمن العريق الذى يتخذ القرآن امامه ، ومحمدا قائده ، ويعلم أن الله من ورائه يقدر الحسنات ، ويحصى السيئات ؛ ويقيم الميزان العادل اذ يقول : «ان أكرمكم عند الله أتقاكم» .

وقد وهب الرجل ذكاء نافذا ، وحافظة بارعة ، فاستوعب جميع ماعرض عليه ، واستشف روح الاسلام من الأحاديث والآيات استشفافا يلج الى الأعماق ، ويرجع بالمتفرقات المتباعدة الى أصول ثابتة الدعائم . وطيدة الأركان ؛ حتى اشتهر فى نشأته الباكرة بالعلم . واعترف ذوو الفضل من الصحابة والتابعين ومن وليهم ، بما شرف قدره وأعلى مكانته ، فقد كان عبد الله بن عمر اذا سئل عن الأمر يشكل عليه يقول : سلوا سعيدا فقد جالس الصالحين ، وقال على بن الحسين : سعيد بن المسيب أعلم الناس بما تقدم من الآثار ، وأفقههم فى زمانه ، وقال قتادة : مارأيت أعلم بالحلال والحرام منه ، وقال مكحول : طفت الارض فما وجدت أعلم منه !! وهذه الأقوال وأمثالها لم تكن تقريظا زائفا يدفع الى التزلف والمحاباة ، انما صدرت عن أناس لاحاجة لهم فى تملق سعيد ، وهم - بعد - يعلمون أنهم محاسبون على مايقولون ! ولو عاش الرجل فى عهد الكتابة والتدوين لرأينا من آرائه وفتاواه مايحدد موضعه فى الفقه الاسلامى ، ولكنا نعلم ان الذين تناقلوا مسائل التشريع ودرسوا قضاياه جعلوه اماما يصدرون عنه ، فقد ذكر مالك والشافعى واحمد واصحاب أبى حنيفة آراءه واستشهدوا بما تنوقل من فتاواه ! ومالنا نبعد ونحن نعلم ، أن عمر بن عبد العزيز ومحمد بن شهاب ، وعمرو بن دينار ، وعطاء بن رباح ومحمد ابن الباقر ويحيى بن سعيد من تلاميذه · ولن يخرج هؤلاء غير فقيه عظيم !

وكان الفقه لعهد الرجل لايقتصر على ماهو مصطلح عليه الآن من معرفة الاحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية بل كان يشمل جميع مايتصل بالاسلام من سيرة وتاريخ وتوحيد وأخلاق وارشاد ، اذ أن الفقه - فى العهد الاول - كان يطلق كما يقول الغزالى فى « الاحياء » على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق النفوس ومفسدات الاعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع الى نعيم الآخرة · وهذا المعنى الشامل المتسع ، قد نوع معارف سعيد ، واتجه به - مع دراسته مسائل العبادات والمعاملات - الى تفهم أسرار النفوس من جهة ، والى الورع والتحفظ من جهة ثانية ! وتظهر الناحية الاولى فى براعته الخارقة فى تأويل الأحلام ، اذ أن دراسته للنفوس قد كانت - مع غيرها - مددا زاخرا يستمد منه عناصر التأويل ، واذا كان علماء النفس يعتمدون الآن فى تفسير الاحلام على دراسة العقل الباطن وحده ، واستكناه رموزه ومعرفة أعماقه السحيقة فى الماضى النازح ، فان سعيدا - مع خبرته النفسية بمن يخاطبه واحاطته بنوازعه وخوالجه ، كان يعتمد فى التأويل على استشفاف روحى توحيه الفطرة الخالصة ، ويدعمه البصر بالمنازع والأهواء كما يمده الايمان القوى بشعاع مشرق يكشف له الغوامض وينير الطريق ·

قال شريك بن نمر : قلت لابن المسيب : رأيت فى النوم كأن أسنانى

سقطت فى يدى ثم دفنتها ؟ فقال : ستدفن أسنانك من أهـل بيتك . فكان ذلك ·

وقال رجل : انه رأى فى النوم كأنه يخوض النار ، فقال سـعيد : ان صدقت رؤياك فلن تموت حتى تركب البحر وتصرع ، فكان ذاك ·

وقال الحصين بن عبيد : طلبت الولد فلم يولد ، فقلت لابن المسيب انى أرى أنه طرح فى مجرى بيض ، فقال ابن المسيب : البيض أعجمى · فاطلب سببا الى العجم ، فتسريت : فولد لى ·

هذا التفسير الصادق يجعلنا نشك كثيرا فيما يؤكده أنصار «فرويد» من أن العقل الباطن وحده هو مفتاح التأويل ، فلا بد من التحليل الدقيق حتى ندرس الأغوار السحيقة فى حياة الرجـل» ، أقول : نشك فى ذلك كثيرا ، لانه يغفـــل الاستشفاف الروحى اغفـــالا تاما ، ولا يلجأ فى حل الرمز الغامض الى مقارنة الشبيه بالشبيه ، والنظير بالنظير كما يفعل سعيد ! وعلى هؤلاء أن يضيفوا الى التحليل النفسى ــ الصادق فى بعض حوادثه ــ شيئا من البصر الحاذق والاستشفاف النافذ ، ولن يكون ذلك بغير الهام سماوى يمده الايمان ويدعمه الاخلاص !

أما تقواه ونسكه وتقشفه فقد ازدحمت بها الأخبار المتواترة ، وما ظنك برجل واظب على حضور الجماعة أربعين سنة لايشـذ عنها وقتـــا واحدا ، واعتلت عينه يوما فقيـــل له : لو خرجت الى العقيق ونظرت الى الخضرة لنفع ذاك · فقال : وكيف أصنع بشهود العتمة والصبح ! وقد كان يتابع الصوم ويسرده سردا ، أما الحج فقد أكثر منه على تقدم السن وضعف البنية ، ووعورة الطريق ! ومع هذا التفانى فى العبادة ، فقد نقلت عنـه أقوال ترسم السبيل السوى للمؤمن المناضل فى الحياة ، فقـد قال له مولاه برد : مارأيت أحسن مما يصنع هؤلاء ! فقال سعيد : وما يصنعون ؟ قال : يصلى أحدهم الظهر ثم لايزال صافا رجليه يصلى حتى العصر ! فقال سعيد : ويحك يابرد ، أما والله ما العبادة هذه ، انما العبادة الكف عن محارم الله ، والتفكر فى أمره واذن فالعابد التقى هو الذى يسعى الى رزقه مجتنبا محارم ربه · ولن تنفعه عبادته وأمعاؤه تتلوى ، وأطفاله يتضورون · وهذه الخبرة الدقيقة بحقائق العبادة وأوهام الناس جعلته يصدر آراءه عن تجربة ملموسة ، وعين ترى ، وأذن تسمع ! فهو يقول : ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل الا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لاينبغى أن تذكر عيوبه؛ فمن كان فضله أكبر من نقصه وهب نقصه لفضله ! هذه الخبرة الدقيقـة بالنفوس، جعلته يرثى للبشرية فيتجاوز عن هناتها ويؤثر الصفح والاغضاء عمن تبدر فى أعماله نوازع الخير ، عسى أن تطغى هذه النوازع الصالحـة

يوما فترفع صاحبها عن الضعف الانسانى ، وما يعقبه من مهلكات قواتل ! !

على أن اغراق الرجل فى عبادته لم يصرفه عن السعى وراء رزقه . فقد رفض عطاءه من بيت المال ، واندفع يتاجر فى الزيت ليعتصر طعامه من حلاله الصريح ، وليتحرر من رق هذه النفوس اللئيمة التى تعطى باليمين لتأخذ بالشمال وتمنح مال الله لاربابه لتضع اغلالا من المنن ، فى الرقاب فتسترق الاحرار وتحنى الرءوس !

لقد كان العصر الأموى – لعهد سعيد – عصر منافع واستغلال ، فالأمراء والولاة لا يسيرون على سنن الراشدين من الخلفاء ، وقد بذلوا جهودهم المضنية فى تدعيم الملك باجتذاب الانصار واغراء النفوس بالمال والمنصب والنفوذ ، وقد رأوا التفاف العامة حول سعيد وتعظيمهم اياه ، فارادوا أن يجذبوه الى ساحتهم ، ليلوذوا بركن وطيد من تعضيده وسعيد يعلم انهم أهل جور ومظلمة ، فيرفض كل رجاء يقدم منهم اليه ، ويراهم دونه فى كل شىء ، حيث قد اعتز بتقوى الله ؛ وذلوا بمعصيته ، وهو لايفتأ يعلن رأيه صريحا شهيرا فى مناوأتهم الصريحة دون أن يابه لعاقبة تسوء ، أو طامة تعم ، وقد أراد عبد الملك أن يخطب ابنة سعيد لولى عهده «الوليد» فيكسب بذلك محبة فى القلوب ، ويتخذ من سعيد دعامة تجذب نحوه الأنصار والأتباع ، ولكن ابن المسيب يحتقر رغائب الحياة وينظر فى صغار شائن الى مقاييسها الواهنة فى منطق الدهماء ، فيرفض أن تكون ابنته أعظم سيدة فى المملكة الاسلامية ! يرفض ذلك ويستهوله ! لانه ينكر أن يكون مطية لظالم ، أو خديعة لشعب مرهق ذليل ! ثم ماذا ؟ يعجل بزفاف وليدته الى طالب علم فقير لايملك غير قوت يومه ! فأى ملاك هذا الذى سما بانسانيته الرفيعة فوق المقاييس الهابطة ، الى أوج رحيب تضيئه العزة ويغمره الجلال .

قال يحيى بن سعيد : كان لسعيد جليس يقال له عبد الله بن وداعة فابطأ عنه أياما ، فسأل عنه وطلبه ، فأتاه معتذرا عن تأخره بمرض زوجته وموتها ، فقال له : ألا أعلمتنا بمرضها فنعودها ؛ أو بموتها فنشهد جنازتها ثم قال : ياعبد الله تزوج ، ولا تلق الله وأنت أعزب ، فقال : يرحمك الله ومن يزوجنى وانا فقير ؟ فقال سعيد : أنا أزوجك ابنتى ، فقال عبد الله : فسكت استحياء واستعظاما ، فقال سعيد : مالك سكت ، أسخطا واعراضا؟ قلت : وأين أنا منها ؟ فقال قم وادع نفرا من الانصار ، فدعوت له فاشهدهم على النكاح ، فلما صلينا العشاء الآخرة توجه سعيد بابنته الى الرجل الفقير ومعها الخادم والدراهم والطعام ، والزوج لايكاد يصدق ماهو فيه ! فليت شعرى من سمع قبل ذلك بانسان يرفض مصاهرة الخليفة ، ويدفع بابنته

الى طالب علم فقير ! الا أن يكون عالما رفعه الاسلام من حضيض البشرية الطامعة الى سماء المثالية الرائعة ؛ ذلكم هو سعيد !

وقد كان النزاع بين الأمويين والزبيريين على أشده بالمدينة ، وكل حزب يجتذب من الأشياع من يشد عضده ويقوى شوكته ، وقد اتجهت أنظار الفريقين الى سعيد ، والرجل فى قرارة نفسه لايؤمن بهما معا ، ويرى الخلافة الاسلامية قد انحرفت عن نهجها الذى عرفه أيام عمر وعلى ! ولكن الرسل من الجانبين يتوافدون عليه وكلمة الحق تصرخ فى فمه فتدمغ الباطل فينحدر ، وقد أرق أولو الأمر لمخالفة سعيد ، وامتحن امتحانا رهيبا من الطائفتين ، فما تراجع عن رأى أو نكص عن حق بل ظل كالطود الشامخ ناهضا يندد بالطغاة ، ويرى الملأ كيف يقف الحق الأعزل فى وجه الباطل المدجج ، وكيف يحرص المسلم الأبى على كلمة الحق وان حال دونه الباطل بسياطه وحرابه ، فلن يصيب الا جلدا وعظما ! أما النفس المؤمنة فمطمئنة بايمانها ملتذة بعذابها ، منتظرة مثوبة الله لأصفيائه ، ونكال الآخرة والأولى لذوى البهتان الآثم ، والطغيان الرهيب !

هذا جابر بن الأسود عامل عبد الله بن الزبير على المدينة يأمره بالبيعة فيمتنع ، فيضربه ستين سوطا ، فما تراجع عن موقفه ويرى ذلك هينا فى سبيل الله !

وهذا عامل عبد الملك على المدينة يأمره بالبيعة للوليد بن عبد الملك فيمتنع ، فيهدده بضرب عنقه ، فما يتراجع لحظة عن موضعه ، ثم يطول الحوار والجدل . فيعرض عليه واحدة من خصال ثلاث : أن يقرأ الوالى كتاب البيعة على الجمهور فيسكت سعيد دون أن يقول لا أو نعم ، أو أن يجلس فى البيت فلا ينهض الى المسجد أياما حتى تنتهى البيعة ، أو أن ينتقل من مكانه بالمسجد فلا يجده الرسول اذ يأتيه ، وقد رفض سعيد هذه العروض وكان له فى العرض الاخير مندوحة تقيه دون أن تخدش رأيه ، ولكنه وضع نفسه موضع الزعامة الكريمة للمسلم الصادق ليسد كل ثنية يلج بها الباطل مأربه . فهو أولا يخشى أن يخرج بالصمت عن لا ونعم ، فيعلم الناس انه بايع ولم يعارض ، وهو ثانيا يتعاظمه ان يمكث بالبيت أياما فلا يخرج الى الصلاة وصوت المؤذن يلهبه ويستدعيه وهو ثالثا يربأ بنفسه أن ينتقل من مكانه حذرا من مخلوق لايملك لنفسه ضرا أو نفعا !

وكان سعيد يعلم حقيقة ماينتظره من عذاب أثيم ، فما أن أعلن مخالفته حتى جرد من ثيابه ، وضرب خمسين سوطا ، وطاف به الرعاع فى أسواق المدينة ، وهم يقولون : هذا موقف الخزى ! فيرد عليهم فى يقين حازم : بل فررنا من الخزى يوم القيامة بما فعلتموه وفعلناه !

هذه المحن السود تمر بالمؤمن فتزيده يقينا وايمانا ، ثم تنجلى غمرتها الغاشية عن روعة واستبشار ، فالظالم يتخاذل ويتقهقر ، حين يجد عقوبته الظالمة قد عادت على غريمه بالعزة وارتفاع الذكر وبعد الصيت !! وهـذا مااستشعره بنو مروان ، فقد أسفوا لما صنعوا ، وهموا باسترضاء الرجل مرات فما أبه بخليفة أو أمير ، وقد قدم عبد الملك يوما الى المدينة ووقف على باب المسجد ، وارسل الى سعيد رجلا يدعوه ، فاتاه الرسول ، وقال : أمير المؤمنين بالباب يريد أن يكلمك !! فقال : مالى اليه من حاجة ، ومابه حاجة الى ، فرجع الرسول فأخبره فقال له : قل له : أجب أمير المؤمنين ، فكرر سعيد ما قال ، فاستعظم الرسول ما صنع ، فقال له سعيد : اذهب يابنى فان كان يريد بى خيرا فهو لك ، أو شرا فليقض ماهو قاض !! ورجع الرسول بالاجابة الى سيده فطوى الضلوع على غيظ كظيم ٠

وقال عمرو بن عاصم : لـما اسـتخلف الوليد بن عبد الملك قدم لمدينة ، فدخل المسجد ، ورأى شيخا قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : سعيد بن المسيب ، فلما جلس ، ارسل اليه ، فاتاه الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال سعيد : لعنه أرسلك الى غيرى ، فاتاه الرسول فأخبره ، فغضب الوليد غضبا شديدا ، وهم به فقال له جلساؤه: يا أمير المؤمنين ، فقيه المدينـة ، وشيخ قريش ، لم يطق أباك من قبلك وأغض عنه ، ثم مازالوا به حتى تراجع !

وقد صلى الحجاج ذات يوم صلاة عاجلة ، لم يتم ركوعها وسجودها كما يجب ، فاخذ سعيد كفا من الحصى ورماه به ، فاستخذى فى صلاته ، وأخذ يطمئن ، ولم يسكت طاغية العرب عن سعيد خشية واجلالا ، ولكنه خاف غضب بنى مروان اذ هم به ، فهم بعد موقفهم الأول منه يتحاشون أن يشعلوا الصدور بمؤاخذته فينكئون جراحا قد اندملت على صديد ، فهى تلتمس السبيل للثورة والانفجار !!

وأيا كان فقد حاول هؤلاء أن يسترضوه ، فما رجعوا بطائل منه ، وقد كان له فى بيت المال عطاء كبير يتجـاوز ثلاثين ألفا ، فبعث اليه ، فرفض ان يأخذ منه درهما ، وقال : لاحاجة لى فيما عند الظلمة من حقوق فقيل له : ألا تخاف على نفسك ؟ فقال لمحدثه : مهلا يا أحمق فلن يضيعنى الله !!

هذا الايمان القوى ، وهذا الاعتزاز بالحق ، وهـذا الورع الرفيع الأخاذ ٠٠ كل اولئك قد أضفى على الرجل حلة زاهية من الهيبة والكمال ، فكان فى حياته قوة مرهوبة عنيدة ، وبعد مماته فكرة سامية نبيلة ، ومثلا تشرئب اليه النفوس الطامحة بل حلما نادرا تتمناه القلوب ، وتترقبه الاجيال ٠

سعيد بن جبير يثور على الحجاج..

بلغت قوة الحجاج بالعراق مبلغا أثار النفوس وأشعل الصدور ، فقد كانت الدماء المراقة ، والاشلاء المتطايرة ، والسجون المكتظة مثارا للحنق والتبرم والضيق ، ولم يرع الحجاج فى قسوته دينا أو مروءة ، فكان يعنف ويبالغ فى التعنيف حتى لا يترك فى النفوس موضعا لسكينه واطمئنان ، وأصبح الناس مابين خائف على نفسه يستكين ويذل ، ومجاهر بالثورة يستقبل الموت راضيا مسرورا ، متخلصا من حياة الذلة والهوان ، وقد انحى كثير من المؤرخين باللائمة على الرجل ، فكتبوا تاريخه بمداد الغيظ والتبرم ، وتربصوا به أسوأ العواقب يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ولم نجد غير قلائل يقفون معه فيتكلفون التبرير الفاشل ، ويختلقون السبب الواهن، وقصارىجهدهم أن يزعموا أنه اضطر الى عسفه الزائد اضطرارا ليحمى الدولة العربية من السقوط !! وليقيم ملكا فخما تتجمع وراءه الكلمة ، وترتفع به الوحدة العربية فى دنيا السياسه المتالية ، وقد نسى هؤلاء أن الظلم طريق فاشل لا يؤدى الى ثبات واستقرار ، وقد بالغ صاحبنا فى عسفه وارهاقه فلم يبلغ شيئا من مأمله كما يدعون !! فامتلأت حياته بالثورات الجائحة ، والفتن الدامية ، وما كاد يفارق الحياة حتى التاث الأمر ببنى مروان ، وقامت الفتن الحمراء فى كل مكان ! فأين الوحدة العربية التى دعم الحجاج أركانها وأقام بناءها فى منطق هؤلاء؟؟ وكيف نغمض عما أورثه الطاغية فى النفوس من ذل مريض، واستكانة كافرة ، فترى العيون الباطل السافر وتغمض عنه متلاهية وتسمع الآذان الافك الصراح وتتظاهر بتصديقه !! وتسير الأقدام فى مواكب النفاق مدعية أنها تسعى فى ركاب العدالة والانصاف !! كل أولئك كان وبالا على الأمة العربية ، ونكبة ماحقة بالدولة الأموية ، فلم تلبث قليلا حتى انجاب ظلامها الحالك ، وأذن الله للباطل أن ينحدر الى هوته تاركا وراءه عبئا ثقيلا مرهقا من المغارم الباهظة والاثقال الفوادح !!

وكان لقسوة الحجاج بواعث نفسية ترجع الى شعوره بضعة أصله . وتعالى بعض الناس عليه ممن ينتمون الى قبائل جهيرة ويفوقهم الرجل — فى رأيه — ذكاء وتجربة وحزما ، هذا الى طموحه الخارق الى أسباب السيادة والسيطرة ، طموحا جعله رجل الدولة الصارم ، وسيف بنى مروان البتار، ومع ما عرف عنه من التكبر والاستعلاء على الرعية ، فقد كان يتذلل

وينخضع للخليفة وآل بيته تذللا مشينا لا يجدر بقـــائد كبير ناط به الجلائل ، وينهض لمواجهة الامور ، ولكن رغبته الحارة فى السيطرة أجبرته على تملق الرؤساء ، وكانت دافعه الاصيل الى هذه الدماء المراقة ، دون أن يرعى وجه الله فى روح تزهق ،ورأس يطيح ! وهذا التزلف الشائن حلفاء بنى مروان ، والتضعضع المتكسر لأمراء الدولة وغلمانها ونسائها من ذوى الصلة الواشجة بالخلافة ، سبة شـــائنة فى ســـيرة رجل يدعى كمال البطولة ، وأصالة السيطرة ، فالبطل الصارم يأبى على ظهره الانحنـــاء والتكسر ، والفتى المســـلم الأصيل يستنكف أن يتمسح بأذيال رجل يفوقه مكانة ونفوذا ، ولا سيما اذا اشتهر عنه أنه الفارس الذى يحمى البيضة ويذود عن العرين !! ولكن الحجاج بذلك التضعضع المشين يدلنا على مفتاح شخصيته التى تتلمس السيطرة الدائبة بتملق الأقوياء وقهر الضعفاء !! دون نظر الى مروءة تأبى الضـــيم ، أو عطف يمنع البطش والارهاب !!

وطبيعي أن يحدث عدوان الحجاج موجة استياء تغمر القلوب ، وكان الفقهاء من أجلة التابعين ، والعلماء من ثقات الأمة فى طليعة المتذمرين من هذا البغى الصريح ، فهم يرون النفوس ترد حتفها الوبىء فى غير حق ، وقد استشرى الطغيان استشراء لا يقف وراء حد ، وكلما سار أحدهم فى الطريق سمع آهات الثاكلة ، ورأى مدمع الباكية وزفرة المتحسرة ، مما يدفع الحليم الأبى الى الغضب والكراهية فالثورة والاستفزاز ، وما كاد عبد الرحمن بن الأشعث يحمل الثورة على الحجاج حتى ســـارع هؤلاء الفقهاء الأماثل الى تأييده وتعضيده !! وفى طليعتهم سيد التابعين سعيد ابن جبير !!

نشأ سعيد نشأة دينية ممتازة فصحب ابن عباس وورث علمه ، وبرع فى الفقه براعة أجلسته مجلس الصدارة بين زملائه ومناظريه ، وتصدر للفتوى الشرعية ، فسار الركبان بآرائه ، ونهل الرواد من علمه ، وأوجد بالكوفة حركة فقهية ممتازة ، كانت دعامة قوية لما نشأ بعد ذلك فى الفقه الاسلامى من مذاهب مختلفة ·

ولا يمكن لمن يلاحظ تطور التشريع فى أدواره المختلفة أن يغفل دور التابعين فى توجيهه وانمائه أو يجحد مكان سعيد فى انعـــاش الحركة العلمية لعصره ، واعتماده فى ذلك على عقل بصير واطلاع شامل ، فقـــد بدأت لعهده تظهر الفروق الأولى بين مذاهب الرأى والحديث ، وتتجمع الأحكام المختلفة ، والآراء التى مهدت لظهور أبى حنيفة ومالك !!

ثم أعقبت هذه الذخيرة الحافلة التى يعتز بها تراثنا الفقهى ، ولو تأخر الزمن بسعيد الى عهد التدوين والتأليف لقرأنا من كتبه ما يعين على

تحديد موضعه بين افذاذ الفقه الاسلامي ، على أننا نلاحظ من آرائه المتفرقة في شعاب الكتب ما ينبيء عن فضل سابغ ، ومجد تليد . وقد اعترف أئمة العلم والورع ببراعته في فقهه وتقواه ، فقال الامام احمد بن حنبل : لقد قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الأرض أحد الا وهو مفتقر الى علمه . وقال حصيف : أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب ، وبالحج عطاء ، وبالحلال والحرام طاووس ، وبالتفسير مجاهد ، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير . وقال الحسن البصري : اللهم انت على فاسق ثقيف ، فوالله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا في دم سعيد بن جبير لكبهم الله على وجوههم في النار !! وعالم فقيه له هذه المنزلة في فقهه وتقواه لابد أن يحتل مكانه اللائق في النفوس ، وقد كان الى ذلك كله شجاع اللسان جريء القلب يقول الحق النسافر دون أن تأخذه في الله لومة لائم ، وجراءة القلب لم تزل دافعة الى التحرش بالباطل ومهاجمة العدوان ، ولاسيما ان استندت الى رصيد ذهبي من التبصر والذكاء !!

رأى ابن جبير مظالم الحجاج وقسوته ، فلم يشأ أن يعتزل الناس في مسجده ، بل عمل على تخفيف الحدة الطاغية بالنصيحة والموعظة . وشارك في بعض الوظائف مشاركة فعالة ، يدرأ بها ما قد يحيق من كيد وعدوان ، فكان نصيرا للضعفاء يبذل جهده الجاهد في تخفيف الويلات ودرء المصاعب ، كما يفرق ما يتجمع لديه من أموال ، على مسهم العوز والاحتياج . وقد أخذ عليه بعض الكتاب (١) اسهامه في القضاء والمشورة ، اذ كان الأولى به في رأيه أن يترك الحياة جانبا ، ويتفرغ لفقهه في امارة ظالمة يحكمها طاغية غشوم ، ولسنا مع من يقول ذلك ، فكفاح المناضل المخلص يجلب منافع صائبة ، ويدفع نوائب كارثة ، واذا تعاون المصلحون — في أوقات الطغيان — على الخير واسهموا في الكفاح فانهم لابد واصلون الى بعض ما يبتغون من السداد ، ولئن لم يمكنهم اخماد النار المشتعلة ، فهم على الأقل يحضرونها في نطاق أضيق .

واذا كان الحسن البصري — معاصر سعيد وقريبه في الفقه والتقوى — قد اعتزل وظائف الدولة ، وشاء لنفسه أن يقتصر على النصيحة والتوجيه في رفق وحيطة ، فليس لنا أن نجبر سعيدا على ارتسام منهجه ، فالانطوائيون في كل عصر لا يساهمون في توجيه النظم ودرء المفاسد كما يقوم بذلك المكافحون المناضلون !! وعجيب جدا أن نرى بعض الذين كتبوا عن سعيد وصاحبه يحبذون اعتزال الحسن ويعدونه مثلا أمثل في التقية والاحتياط ، وينظرون الى اشتراك سعيد في وظائف الدولة كخطأ تتلمس له المعاذير !! وكأن صاحب هذا الرأي لا يعلم أن الاسلام دين

---

(١) اقرأ ذلك في كتاب القضايا الكبرى في الاسلام .

كفاح وعمل ، وليست قيمة الورع أن تعتزل المناصب وتترك ميـــدان العمل ، بل عليك أن تزهد وتتورع والدنيا فى يدك ، تعرفها بميزان العدالة المنصفة ، فتدفع شرا يطرأ ، وتجلب خيرا يتاح ٠

ولم يتخلف سعيد بن جبير عن الغزو والجهاد فقد خف الى مقاتلة « روتبيل » ملك الترك حين تحرش بالمسلمين ، وهاجم سجستان فدك الحصون ، وازهق الأرواح ، ووقع الغر بفى رعب شديد ، وفزع هائل ، وقد سار الجيش الاسلامى بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث لتاديب الطغاة ، ومعه العدة الواقية من السلاح والرجال والخيول !! وكان الموقف دقيقا يتطلب البطولة الحازمة والرأى الحصيف ، فالمسلمون مقبلون على اصقاع نائية ، ذات هضاب وأشواك ، وعدوهم مستقر ببلاده يعرف الدروب والمسالك ، ويتمتع قائده بحيل ماكرة تذلل العسير ، وتقوم مقام القوة والعتاد ، فلا بد اذن من العزيمة الصادقة ، والجلاد الصابر المرير ، وقد خطب عبد الرحمن جنوده وصـــور الموقف الدقيق داعيـــا الى الحمية والاستبسال ، ثم أخذ يتقدم فيحتل مواطن أعدائه بلدا بلدا ، ولا يندفع فى طريق دون أن يختبر دروبه ، ويلم بما أمامه من مرتفعات وشعاب ، وقد كتب الله له النصر فاحتل حصونا كثيرة ، ووضع المخافر المسلحة فى كل مكان مخوف ، وأقام البريد بين الأماكن المحتلة ، لتاتيه الأنباء فى أقرب مدى يمكن ، وقد فكر فى أمره طويلا فرأى من الحيطة أن يكتفى الى أمد قريب بما أحرز من نجاح ، فلا يدفع بكتائبه المجهودة فى مطارح نائية دون أن تاخذ نصيبها من الراحة والاستجمام ، فتنقطع بها الاسباب وينقلب النصر هزيمة نكراء ٠ ثم كتب الى الحجاج ينبئه بما اصاب من غنم ، وما عزم عليه من هدنة مؤقتة يتم بعدها الاستيلاء التدريجى عـلى البلاد ، وكان على الحجاج أن يقدر له موقفه فيشجعه بعبارات تفعل فعلها الحميد فى نفسية القائد المناضل وجنوده المغاوير ، ولكنه عارض الهدنة معارضة شديدة ، وأرسل الى عبد الرحمن خطابا مليئا بالزراية والاستهجان ثم أعلن عزله وتوعده مهددا منددا ، وتلك حماقة رعناء يرتكبها الحجاج دون روية وانتباه ، اذ كان يمكنه أن يصوغ أسلوبه صياغة هادئة تتجافى عن الاستهجان والوعيد ، ثم يعلن رغبته فى استئناف القتـــال مشجعا قائده ، مثنيا على جهوده ٠ واذ ذاك لا تنفجر النفوس بالغيظ فتجنح الى التمرد والعصيان ، وقد كان الأشعث بمكانه من الكفاح وخبرته بالمواقع والدروب ، أبصر من الحجاج بما يجب أن يتبع مع الأعداء ، فقد درس البلاد وتمرس بخطوبها الفادحة ، ولن يستوى الغائب والشاهد بحال !! كان على الحجاج أن يفعل ذلك ، والا فأية نتيجة يتوقعها غير الثورة الهائجة من أناس جاهدوا أعنف جهاد ، ثم قوبلوا من القيادة بالاستخفاف والتحقير والابعاد !!

على أننا نجزم جزما تؤيده شواهد التـاريخ ، وتوحى به دلائل السياسة ، أن الحجاج كان على ثورته الرعناء على ابن الأشعث ، يقدر اعتبارات شخصية لا تتعلق بمصلحة الحرب ، فهو يرى فى عبد الرحمن منافسا خطيرا يقوم الناس له ويقعدون ، ولئن وقعت الهـدنة كما يريد فسوف يتفرغ الى جمع القلوب نحوه والتفاف الناس حول رايته ، ومن ثم تعظم مكانته ، ويحتل فى بلاط الخلافة منزل المنافس العنيد ، لذلك بادر الحجاج بعزله وتهديده ، وكان فى النصح باستئناف الحرب مندوحة عن الوعيد والقهر لو خلصت النيات من دخلها المريب ، وكأنى بعبد الرحمن وقد لاحظ ذلك وتيقنه ، فحمل لواء الثورة الناقمة ، وتكتكت معه عصائبه الكثيرة وكتائبه الشداد !!

لقد ثار عبد الرحمن على الحجاج ! وثار معه أتباعه وفى طليعتهم سيد التابعين سعيد بن جبير !! ولم يكن تهديد الحجاج وحده باعث هذه الثورة فى رأى من انضم الى غريمه العتيد ، بل ان تاريخ الحجاج المفعم بمآسيه النكراء قد ترك فى كل نفس هزة أليمة ، فلم تكد تتلمس القائد المغامر حتى هبت تجالد العدوان . وتحلم بالانتقام حلمـــا يدفعها الى التضحية والاستبسال ، وكان سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن ليلى وعامر الشعبى ، وغيرهم من اعلام الفقه وأئمة العلم فى مقدمة الثائرين ، وقد لاقت الثورة تأييدا اجماعيا من العراق وكاد يتم لها النصر الساحق فى مواقع متتالية أخذت تتلاحق وتتابع ، الا أن عزيمة الحجاج الصخرية قد استطاعت أن تتغلب على الصعاب وقد وردت اليه جحافل الشـــام واستعان الطاغية بمكائده الكثيرة ، فاندحر ابن الأشعث وفر هاربا تتقاذفه السبل والمشارف ، وتفرق جيشه أباديد ، فقبض الحجاج على ناصية الأمر. وعقـد المحاكمات الدامية للثائرين ، فأزهق مئات الارواح ، وختم حياته الســـياسية بهـــذه المحاكمات ختاما سيئا يذكره التـــاريخ بالفزع والاستنكار !!

تصدر الحجاج مجلس المحاكمة ، وأخذ يرسل ضحاياه الى الجلاد شهيدا وراء شهيد لا يعبأ بعذر واضح أو يستشعر خشية مرهوبة ، وكانت محاكمة سعيد بن جبير ، حدثا رائعا يسجل آيات البطولة من مســـلم يثق بعدل الله ورحمته ، ويرى من المحتم المؤكد عليه ، أن يجابه الطغيان فى جبروته ، ولا عليه اذا كانت نتيجة ذلك قاســـية أليمة فهو يعلم أن حياة الذل والخنوع لا تقاس بالشهادة العالية فى مناضلة الفســـاد . والتشهير بذويه ، وقد كان فى وسعه أن يتفادى مصرعه بكلمات معسولة تظهر تدرعه واستكانته ، ولكنه وجد الحرج الزائد فى ضميره ، واستشعر الرغبة المخلصة فى الشهادة ، فأعلنها ثورة سافرة على الظلم البغيض ، وواجه الأسئلة القاسية باجابة تعدلها قســـوة وصلابة ، فأذل كبرياء

الحجاج وحطم غروره الكاذب فى موقف يترقب فيه المديح والاطراء ، بل ان سعيدا قد أبى أن يهرب فى طريقه الى المحاكمة ، وقد مهد له الحارس سبيل الفرار ، أبى ذلك ورفضه كي لا يؤخذ بجرمه حارس ضعيف . !! وكيلا تسجل الأجيال عليه نكوصا عن مواجهة الطغيان فى موقف تقشعر به الجلود ، وترتعد الفرائص الشداد !! واليك بعض مادارت به المحاكمة الرهيبة بين الطاغية الظالم ، وغريمه الأبى الصبور !!

لقد انتفخ الحجاج فى جلسته ، وسأل فى استخفاف :

ما اسمك ؟ فسمع سعيدا يجيب فى صلابة وعزة :

« اسمي سعيد بن جبير !! ولكن الطاغية يتهكم فيقول مبالغا فى استخفافه : بل شقى بن كسير !! فيندفع سعيد ليجيبه بقوله : أبى كان أعلم باسمى منك !! واذ ذاك يتضـايق الحجاج فيصيح فى تبرم وغيظ : لقد شقيت وشـــقى أبوك ، ويظن أنه بذلك قد قطع الرد على غريمه ! ولكنه يسمعه يجيب : الغيب انما يعلمه غيرك ، فيستشرى غيظه ويلجأ الى الوعيد والتهديد فيصيح : لأبدلنك نارا تتلظى ! وهنـا يرده سعيد الى حقيقته فيقول له فى بساطة هادئة : لو علمت أن ذلك لك ما اتخذت الها غيرك !!

لقد طالت الأسئلة ، ولم يصل الرجل الى افحام غريمه كمـــا يريد ، فليسلك مسلكا آخر يقرب الفريسة من فخها المرصود !! وكان الكلام عن بعض الصحابة ـ آنذاك ـ مثارا للكيد ، والاتهـام بمنـاوأة الدولة ، والثورة على سياستها العـامة ، ولا سيما تطرق الحديث الى الامام على كرم الله وجهه ، وقد فطن الحجاج الى ذلك ، فأدار الدفة الى أهل البيت ، وسأل سعيدا : ما قولك فى محمد ؟! وهو سؤال لا يتطلب روية من عالم بصير كسعيد ، فصاح يقول : نبى الرحمة وامام الهدى ، بعثه الله رحمة للعالمين ..

وهنا نفذ الطاغية الى هدفه فقال : وما رأيك فى على ؟ أهو فى الجنة أم فى النـــار ؟ واستمع الرد فوجد حزمـا بالغا وحيطة تامة فى قول سعيد : « لو دخلتها وعرفت من فيها لعرفت أهلها » فقد أقفل بسداده الحازم باب اللجاجة فى وجه أموى حاقد ، يتربص الدوائر بشيعة على وعشاقه ، !! فتميز الحجاج حنقا وصـاح : ما قولك فى الخلفاء ؟ ولكن الرد يأتيه فى قول سعيد : لست عليهم بوكيل !!

وسار النقاش فى طريقه الدقيق من باب الى باب دون أن يزل ابن جبير باتهام يدع حيثية الاعدام فى يد عدوه ، فاصطرعت فى نفســه

أعنف ضروب الانفعالات المتناقضة فكان رأســه يغلى بأفكاره كما يغلى القدر الفائر ، ثم هدأ قليلا ، وقال فى سخرية مريرة :

« أتريد أن أعفو عنك ؟ ! فاذا سعيد يقول فى ثقة وايمان : « ان كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا تملك عفوا عن انســان ! ولو كان الحجاج ممن يخشعون لهيبة الله لقنع بما سمع ، ولقدر للرجل ايمانه الراسخ ، ويقينه العميق !! ولكن حمى الانتقام الرعناء ترتعش فى كيانه ،

ثم تصدع رأسه فيصيح : اختر أى قتلة تريد أن أقتلك بها ؟ فيجيبه سعيد فى هدوء الصابر وايمان المحتسب : بل اختر يا عدو الله لنفسك ، فوالله ما تقتلنى اليوم قتلة الا قتلتك فى الآخرة بمثلها !!

ثم تكون الخاتمة الأليمة فيساق الشهيد الى المذبحة الحمراء ، وكانت آخر دعوة ترددت بها أنفاسه الطاهرة : اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدى !! وكأن السماء قد سمعت دعاء المظلوم الشهيد ، فمات الحجــاج بعد مصرع غريمه بخمس عشرة ليلة دون ان يريق دما لانسان ، وحسم الموت شره عن الناس !!

لقد استشهد سعيد فى حومة المجد والكرامة !! ولكن زميله فى الثورة الفقيه العالم « عامر الشعبى » قد نجا من الموت ، اذ أظهر الخنوع والاستكانة وطأطأ رأسه للطغيان ، منتحلا شتى المعاذير ، وتقدم الى الحجاج يقول فى توبة النادم ،وأسف المذنب : « أصلح الله الأمير ، لقد حبطتنا فتنة ، فما كنا فيها بأبرار أتقياء ، ولا فجار أقوياء ، وقد كتبت الى يزيد بن أبى مسلم أعلمه ندامتى على ما فرط منى ، ومعرفتى بالحق الذى خرجت منه ، وسألته أن يخبرك بذلك ويأخذ أمانا منك !! »

ونحن حين نوازن بين الموقفين نجد عامرا قد اعترف بنكوصه عن الحق فى ثورته على الحجاج !! ومعنى ذلك أن الطاغية فى بطشه الماحق وقهره العنيف لا يستأهل ثورة قوية تزعزع باطله الجرىء !! فلو وقف سعيد موقف الشعبى لكان حدثا رائعا وخطبا جللا أن يعترف فقيهان كبيران ، بعدل الحجاج فى بغيه ، وانصافه فى جبروته !! وذلك مالا يرضى عنه أخو ورع يسمع ويرى ما يزهق من الأرواح ، وما يتطاير من الاشلاء كل حين ، لذلك آثر سعيد الآخرة ، وتقدم الى المحاكمة يحمل روحه على كفه ، ليعلم الناس جميعا ، أن الحرية تنال بالدماء ، وأن الشهادة فى سبيل الحق مثوبة رفيعة لايدركها غير المثاليين من ذوى النفوس الرفيعة والمعدن الأصيل !!

على أن الحجاج الذى ازهق فى حياته ما يزيد على المائة والعشرين ألفا من الأرواح (هــكذا قال التاريخ) ، قد استهول مصرع سعيد وحده ،

فالتاث عقله ، وشرد رأيه منذ شاهد رأس الشهيد يتطاير عن جسمه فلم يذق النوم الا غرارا ، وكان يستيقظ فزعا وهو يصيح : يا قوم ، مالى ولسعيد بن جبير ، كلما عزمت على النوم أخذ بحلقى !!! وكان يتخيل كأن هاتفا يصلصل فى اذنه : أى عدو الله ·· فيم قتلت سعيدا !! ومات الطاغية وهو يذكر فى احتضاره سعيدا ، كما مات معاوية من قبله وهو يذكر فى سكراته حجر بن عدى !! وكلاهما يذكرنا فى انفعـــاله المؤرق بقول القائل :

اثنان لا يتهـــادنان دقيقة شبح الضحية والضمير المذنب

يحيى بن يعمر بطل صريح

لو ازدهر التأليف فى القرن الأول من الهجرة كما ازدهر فيما تلاه من العصور لنمت الثقافة الاسلامية خيرا كثيرا منه ، اذ أن هذا القرن الجليل قد حفل بعلماء أماثل من أجلة الصحابة ، وأهلة التابعين ، واذا كانرى اليوم آراءهم العلمية متفرقة فى مطاوى الكتب فنقف على الكثير من اجتهادهم الحافل ، واستنباطهم الدقيق ، فماذا كنا نغنم من المعرفة لو عكف هؤلاء الاعلام على تدوين آرائهم فى كتب خاصة بهم كما فعل الخلف ممن تلاهم على مر العصور ، وان سماء ساطعة يتألق فى أفقها المنير كواكب وضاءة من أمثال على وابن عباس وابن عمر وزيد ومعاذ وابن مسعود من مشيخة الصحابة ومن طراز الزهرى وابن المسيب وعطاء الشعبى وربيعة وابن جبير وحماد والحسن من أعيان التابعين ان سماء تسطع بهذه الكواكب لجديرة أن تبعث الضوء فى ظلمات الأحقاب ودياجى العصور فتهدى الى الطريق القويم .

ولقد كان يحيى بن يعمر العدوانى احد هؤلاء المتضلعين فى علوم الشريعة والعربية من أفاضل التابعين ، وقد شارك مشاركة مثمرة فى غرس بذور النحو مع أبى الأسود ثم انه كان كاتبا لا يتلقى العلم مشافهة فحسب بل يدون ويسجل ، وقد عثر على بعض الصحف الأثرية ممهورة باسمه كما أنه المخترع الأول لنقط الحروف بعد أن خاف اللبس من الاهمال فابتكر الاعجام ، هذا الى تضلع واسع فى اللغة ، اذ كان لا يسأل عن كلمة ينطق بها بدوى مصحر الا شرحها واستشهد عليها من محفوظه وقد دعاه هذا التتبع الواسع لمهجور الكلام فى بطون القبائل ، وأفخاذ البداة أن ينطق فى بعض حديثه بالغريب ، حتى اشتط بعض الكاتبين فعده من المتقعرين ، وما اظن هذا صحيحا ، لأن المتقعر هو الذى يجمع الحوشى من هنا وهناك ليتشدق به عن عمد ، على سبيل المباهاة ! .

أما العالم اللغوى المتمكن فلابد أن يسيل على لسانه ما لا يقصده من الغريب ، كما نرى اليوم بعض الاصطلاحات العلمية فى كتابات العلماء ، وخواطرهم الادبية ، دون أن يقصدوا الى تعالم شخصى ، انما يتحكم فيهم تخصصهم الضليع تحكما لا يقوون على الانفلات منه !! هكذا كان يحيى فيما ينطق به من الغريب ، حتى اشتهر عنه وتنوقلت منه طرائف وأفاكيه ، روى أن يزيد بن المهلب كتب الى الحجاج : لقد لقينا العدو

ففعلنا وفعلنا حتى اضطررنا ، الى عرعرة الجبل ، فقـال الحجاج ما لابن المهلب وهذا الكلام ! فقيل له : ان يحيى بن يعمر لديه : فابتسم قائلا : هو ذاك .

هذا بعض ما يشير الى مكانته فى علوم العربية ، اما آراؤه العلمية فى الفقه والتفسير والحديث فأكثر من أن يلم بها ملم فى نطاق وجيز . ولسنا هنا بصدد ايضاح مركزه العلمى ، ولكننا نمهد لايضاح عظمته النفسية وعزته الخلقية فقد كان من الشجاعة الأدبية فى الحق ، والجرأة الخلقية فى مواجهة الطغيان بالمكان السامق ، والمنزل المرموق ، وقد شاء له القدر ان يبتلى بالحجاج او يبتلى الحجاج به ، فواجه وكابر وادى دوره مرفوع الرأس عالى الجبين .

كان الحجاج ، طاغية العراق ، يدين بفلسفة القـوة والارهاب ، فليس من همه أن يستميل القلوب بمعسول القول وجميل الفعل اذ ان ظروف حياته وحوادث عصره ، وفتن بيئته ، قد جعلته لا يعبأ بمهادنة واستمالة ، وانما يرى الطغيان سبيل الهدوء والاستقرار ، وقد اختاره عبد الملك ليقمع ويردع لا ليؤلف ويقرب ووجد بعد التجربة أن القمع يدنى من مأربه ، ويرفع من مكانته لدى الخلافة، فتمادى فيه تماديا جائرا، ووطن عزمه على أن يقوم السيف بواجب الطاعة والخضوع مهما امتلأت منه القلوب موجدة وغيظا ، وانه ليجلس على العراق عالما ان حاشيته ــ قبل رعيته ــ يضيقون به ويسعون للتخلص من شره ، ثم هو لا يعبأ بما يعلم ما دام السيف فى يده والسجن من ورائه ، فليغضب الغاضبون كما يشاءون فالقوة الطاغية تقيه كل سوء ، وقد تغلغل اعتقاده هذا فى نفسه حتى سرى الى أسرته الخاصة فكان يجبر المرأة على الاقتران به ثم يعاملها معاملة من لا يستميل ودها او يحرص على حنانها ، بل معاملة المتسلط المتحكم ، ولها أن تضيق فيما بينها وبين نفسها بزوجها ومنزلها وحياتها فليس بمنجيها منه تبرم أو ضيق ، واذا كان هذا سلوكه مع أحب الناس اليه فما ظنك بالجنيب البعيد ؟ هذا المتحـكم القـاهر قد ابتلى بيحيى بن يعمر فيمن ابتلى بهم من العلماء فما وهنوا لمـا أصابهم ، بل ناوشـوه وقارعوه ، وانتصروا عليه بالمنطق المفحم فى يوم مجموع له الناس !

لقد رأى الحجاج ان الكوفة تهيم حبا بالحسين بن على ، وتجمل من ذكراه المؤسية منحدرا للدمع ومصعدا للزفير ، وقد كافح وجاهد فى تبديد هذا الحب الوثيق فما استطاع ، وكان يعلم ان قرابة السبط الشهيد من رسول الله تجمع عليه القلوب وتضعه بين الجوانح والشغاف ففكر وقدر ، ثم رأى ان يعلن أن الحسين هو ابن على بن ابى طالب ابن عبد المطلب وليس من ذرية محمد بن عبد الله لأن انتسابه لفاطمة

لا يغير من الأمر شيئا فالأب هو المعتبر فى النسب دون الأم على قول من قال :

بنو ابنـــائنا وبنـــاتنا   بنوهن ابناء الرجال الأباعد

وقد خطب فى ذلك واطال ، واخذ يتتبع مخالفيه سجنا وتشريدا ، ويرسل عيونه فى الكوفه ليأتوه بمعارض يصدر عن غير رايه ، فيجعل من عقابه مثلا رادعا لغيره ، وسرعان ماجاءه الخبر ان يحيى بن يعمر سئل عن الحسين وانتمائه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فأجاب فى المسجد الجامع ان الحسن والحسين من ذرية رسول الله ! وان الحجاج يحكم ولا يفتى ، فاذا افتى فعن غير علم واعتقاد ! !

لم يدهش الطاغية لما بلغه ، فهو يعرف فى يحيى جراة وشجاعة ، وكثيرا ما اصطدم معه فى جدل مذهبى فكان صاحب الحجة الفاصلة والمنطق الراجح دون أن تعصف به رهبة أو يلين من ثباته ايعاد ، ثم هو بعد يتشيع فى اعتدال فلا يوازن بين الصحابة لينصر فريقا على فريق ، ولكن ليضع الحق فى نصابه مستعصما بالعروة الوثقى من الايمان ، على انه من وراء ذلك مسموع الكلمة ، محترم الراى ، فاذا افتى بما يعارض الحجاج فقد تمكن من قلوب الناس وذهبت دعوى الطاغية فى الحسين ابادبد ، ماذا عسى ان يصنع به وقد اصطدم منه بداهية دهياء ، لابد أن يتمكن من اسكاته عن طريق الادعاء والتعنت فيلزمه بنص واضح من القرآن يؤيد دعواه !

وليس فى القرآن فى منطق الحجاج ما يثبت ذلك ، فاذا اعلن يحيى عجزه عن الاستشهاد بالقرآن فقد قامت عليه الحجة فى راى الجمهرة من العامة وللطاغية بعد ذلك أن يتطاول عليه مستكثرا بالسلطان والجبروت حتى يخذله خذلانا لانجح بعده ـ هكذا قدر الحجاج واراد، ثم نعجل فعقد مجلسا حاشدا من أعوانه ووجهاء الكوفة ، ودعا معهم شيعة يحيى ومقدرى علمه وفضله ، لينكشف امامهم فى المعمعة ، فيضيع ما ينسب اليه من علم وثبات ، ثم ارسل من يحضر يحيى ليتجرع كأس الهزيمة فى انكسار وحانت الساعة المرتقبة ، فحضر الرجل ليرى حفلا غاصا بالجموع ، وقد تصدره الحجاج كالح الوجه مقطب الجبين ، وقد امتدت العيون، واشرابت الاعناق لترى العالم الوقور يتقدم فى اطمئنان فيلقى تحية الاسلام ثم يهم بالقعود فيصيح به الحجاج :

« لا تقعد يا يحيى واوضح لنا رايك فى صلة الحسين برسول الله ! »

فيرد يحيى فى كبرياء : الحسين والحسن من ذرية رسول الله

وان غضب الحجـــاج ! ! فيتنمر الحجـــاج متحفزا ويصيح : ألديك دليل من كتاب الله ، فيرد يحيى فى ثقة بانفة : معى الدليل من القرآن !! فيضرب الحجاج كفا بكف ويقول متهكما : ما شاء الله ، أفى القرآن ان الحسن والحسين من ذرية رسول الله ! لقد قراته مئات المرات فما وجدت ما تقول يا رجل !

فيتطلع يحيى الى الحاضرين ثم يصيح بصوت مجلجل ، وايمـــان وثاب :

قال الله تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم ، ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجـزى المحســنين ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين »

ثم تلفت الى الجمهور قائلا : أيكون عيسى بن مريم من ذرية ابراهيم بنص القرآن ولا يكون الحسين من ذرية رسول الله ، وبينهما من القرابة الدانية اكثر مما بين عيسى وابراهيم ايها الناس !

لقد جاء الدليل صاعقا قاصما ، وقد اعتصــم الحجاج بذكائه ليسعفه برد مضلل فما استطاع ، وبدت الفرحة والشمـاتة فى عيون الجالسين ، فزادت من ضيق الحجاج وانبهاره ثم راى ان يتراجع فى موقف ضائق يضغط عليه بآصاره فابتسم فى تصنع ، وقال :

« اجلس يا يحيى . فقد فاتنى هذا الاستنباط ! »

ولم يشأ أن يصرف القوم لوجوههم بعد ما لحقه من خزى فاشل، فراى أن ينهض فيعترف بأن القرآن بحر لا ساحل له ، وان العربيـة الفصحى لا تسلس قيادها لغير من يحفظ القرآن ، وانه هو وحده الذى أمر يحيى بن يعمر ان يضع النقط على حروف المصحف ، لتسهل سبيل الحفظ الدقيق ، والاستظهار الصحيح ، وراى ان يجامل يحيى فاتجه اليه سائلا :

ــ اتجدنى الحن فى قولى يا ابن يعمر !

فابتسم يحيى ابتسامة المتهكم وقال فى لهجة ذات مغزى خاص ، الأمير افصح من ذلك ــ فاغتاظ الحجاج وصاح قائلا : « عزمت عليك : اتجدنى الحن .

فقال يحيى بملء فمه : نعم ايها الأمير !

فنظر منبهرا وقال : اللحن فى اى شىء أفصاح يحيى : فى كتاب الله !

فنهض الطاغية مغتاظا وهو يقول : ذلك اسوأ لو كان ، ففى اى حرف لحنت ؟

فرد يحيى فى تحـــد : لقد قرات بالمسجد الجامع « قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخواتكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب اليكم » ، فضممت الباء وهى مفتوحة !

فتغير وجه الرجل ، وحدثته نفسه أن يهم بصاحبه ، ولكن انهياره النفسى أورثه ترددا لا عهد له به ، ثم انه خشى أن يصيبه بسوء فيتناقل الناس فى الأمصار قصة حجاجه فى نسب الحسين ، وينتهى الى قصر الخلافة فى دمشق ما كان من تهوره حين جادل فى امر لا يقبل الجـدل فمكن لخصوم الخلافة من الانتصـــار ، واضاف الى حججهم الدامغة حجة شماء ، فرأى أن يستكين . وشـــاء بعض الحاضرين أن يصرف الحديث الى موضوع آخر ، فأخذ يسأل الحجاج عن مدينة واسط التى شيدها باذلا جهـــده انجاهد فى التعمير والتثمير ؛ وكان الطاغية قد ارتاح الى هذا الانتقال المنقذ ، فأخذ يسهب فى تقدير كفايتـــه ، ويبين حسن اختياره للمكان ، وسخاءه فى الانفاق والتشييد ، ويحصى اعداد من قاموا بالبناء من الفعلة والعمال وما استخدم من الماشية والحيوان وما أنفق من الدرهم والدينار ، ثم رأى ان يصـــانع يحيى ليظهر امام الناس بأن هزيمته لم تنل من نفسه ، وان الأمر لا يخرج عن مجرد رأى يخطىء ويصيب ، فربت على كتفه برفق ثم قال :

ــ لم تذكر لنا رايك فى مدينة واسط يا يحيى !

فسكت الرجل ولم يرد !! وتوجهت العيون اليه فزادت من حرج الحجاج وتورطه فأعاد السؤال مغيظا !

فقال يحيى : ايها الأمير ماذا اقول عن واسط ، وقد شيدتها من غير مالك ، وسيسكنها غير أهلك .

فلم يعد فى قوس الصبر لدى الطاغية من منزع ، وتلهب الجمـر فى عينيه ثم صاح فى انفعال : ما حملك على هذا ؟

فقال يحيى فى اعتداد : ما اخذ الله تعالى على العلماء فى علمهم "الا يكتموا الناس حديثا ! !

فأطرق الحجاج منخذلا ، وساد صمت حائر غمر المكان لحظات . ورأى الطاغية ان يقوم بعمل ينقذ خشيته فصاح بيحيى :

ـ لا تساكنى ببلد انا فيه ، فاذهب منفيا الى خراسان ! ثم نهض من مكانه مخذولا ليتفرق الناس ، كل الى مثواه ..

قال الراوى :

ـ وذهب يحيى بن يعمر الى خراسان ، فوجد صيته الطائر بسبقه هناك، ورأى الجميع يتحدثون بمجابهته للحجاج مكبرين مقدرين! ودنا خراسانى فسأله فى تعجب :

ـ الم تخش سيف الحجاج ! ؟ فرد فى ايمان الواثق : لقد ملأتنى خشية الله فلم تدع مكانا لخشية انسان .

عمرو بن عبيد عالم مثالي

كان أبو جعفر المنصور امير المؤمنين ، وكان من الهيبة والخشية بمنزلة توحى الرعب ، وتبعث الفزع فيمن يخالطونه ويشاركونه الحكم من امراء ووزراء وقواد .

ولو نظرنا الى تاريخه نظرة فاحصة لرأيناه ــ وان ملك الدنيا ودانت له الرقاب ــ غير سعيد بأبهته وسلطانه ، فقد راى الرجل من الأحداث المتناقضة المتضاربة منذ صباه الناشيء الى أن لقى ربه ما اورثه القلق والحيرة والياس ، فقد كان يظن ابان نشأته الأولى فى حكم الأمويين ان ما تعانيه نفسه من فزع ، وما تلقاه عشيرته من مضض سيزول حتما بزوال الدولة الأموية المستبدة ، ولذلك جاهد وجالد ، وانتقل الى شتى الأقاصى النائية ، ليبشر بيوم جديد ، تشرق فيه الشمس على العالم الاسلامى ساطعة منيرة ، ثم تغيرت الدنيا وتحقق الحلم المشتهى ، واصبح خليفة يأمر فيطاع ! فهل هدات نفسه قليلا من شجنها الثائر ووجدها المقيم ! انه لينظر فيجد نفسه مضطرا الى أن ينقلب على اصدقاء الامس ممن بنوا مجده ، ورفعوا خلافته . فتسيل دماؤهم على شفرات سيوفه ، وتتساقط رقابهم بضربات أنانيته وحذره ! ! ثم انه لا يقتصر فى ذلك على أصدقائه واعوانه ، ممن لا تربطه بهم أواصر الدم والنسب ، بل ينتقل الى ابناء عمومته فيتخذهم خصوما أشد خطرا ، وافزع أثرا من الاباعد الغرباء ويعمل فيهم جبروته فيغتال الأرواح ويسفك الدماء ! ! وليت شره اقتصر على بنى العمومة بل انتقل الى بنى العباسى انفسهم ، فهو يقصى ولى عهده بتدبير ظالم ليمهد السبيل لنجله ثم يتتبع انصاره وخلصاءه فلا يفلت من يده أحد ، ويظن الظنون فى طوايا وزرائه ونيات قواده فيعصف فى الغد بصديق الأمس ، ويحدث من الارتياب والقلق فى نفوس حاشيته ، ما يجعل الوزير المطاع يترقب يومه فى حذر واشفاق ، بل هو يسبر اغوار خلصائه ومعارفه محللا معللا فيجدهم مثله . طلاب جاه ونفوذ ، وعشاق أموال وقصور ، فليس فيهم من يخلص له النصيحة بنفس صادقة ، وسريرة طاهرة ، وانه ليرى فى وجوههم عيون الثعالب ، يديرونها ذات الشمال وذات اليمين ، وهو بعد مضطر الى مصانعتهم ، والتغاضى عن بعض ما يأتون ، ليكونوا اعوان شدته ، ونصراء كريهته ! ! ليت شعرى : ــ أيستقيم له

فى هذا العباب المضطرب هدوء واثق، او اطمئنان مريح لقد أخذ يستعيد تاريخ حياته ، ويفكر فى بعض من يعرفهم من ذوى النفوس الخيرة ، ليكونوا مستشاريه ونصحاءه ، فلم يكد يعثر على احد . .

ثم لمع فى ذهنه فجاة خيال صديقه القديم العالم العابد الزاهد عمرو بن عبيد فرأى فيه مثلا للصراحة المخلصة والنزاهة الخالصة من المأرب والهوى ، والرجولة المترفعة عن الرغبات والميول ، فبعث اليه من يستدعيه مكرما مبجلا ! وانه ليـأمل أن يجد بعض الراحة معه حين يجلس لحظات مع نفس ملائكية لا تفكر فى غير نوازع الحق والخير والجمال . . .

ولم يكن عمرو بن عبيد بالخامل الذكر او المجهول القدر فقد كان عالم البصرة ورأس متكلميها وله جدل يفحم الخصم ، ولسان يفلق الصخر . . .

وان اختلف أعداؤه معه فى آرائه الاعتزالية ، ومسلكه القدرى ورأيه فى العدل والمعصية فهم متفقون جميعا الا من ندر على طهارة نفسه ، ونزاهة ضميره ، ومتانة خلقه ! وان استاذه «الحسن البصرى» ليعبر عن شعور عارفيه ، حين يقول عن تلميذه التقى كلمة يفوح منها عبير المحبة والتقدير ، وقد خبره فى حلقات الدرس واكتشف سلوكه فى معاملة الانداد والنظراء ، فاندفع يقول عنه فى ثقة واعجاب :

— عمرو ما عمرو ! ؟ رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الأنبياء ربته : ان قام بأمر قعد به ، وان قعد لأمر قام به ، وان أمر بشيء كان الزم الناس له ، وان نهى عن شيء كان اترك الناس له ، ما رايت ظاهرا أشبه بباطن منه ، ولا باطنا أشبه بظاهر منه .

هذه التزكية المشرفة من امام خطير الرأى والمكانة والثقافة فى عصره كالحسن البصرى . . . لا تكفى لدفع لجاجة بعض خصومه فى الرأى، فاندفعوا وراء حقودهم الشخصية الى مهاجمته فى دينه وعقيدته . واذا كان الرجل قد افحم بالحجة والعقل ، ورمى تقولهم بالوضع والافتراء ، وأول ما يعتمدون عليه من الآيات والأحاديث والنصوص ، فقد رموا منه بداهية دهياء ، على أنه قد رزق من سلاسة القول وفصاحة العبارة ما ملك أزمة العامة والخاصة ، فليس لخصومه معه فى جميع هذه النواحى سبيل الى المجابهة والعناد ، وقد غلت الحقود المريضة ببعضهم فاندفعوا يسبونه سبابا جارحا ، يبرأ منه الخلق الأصيل ، حتى لقد جاء اليه بعض تلاميذه ذات صباح فقال له : يا أبا عثمان انى لأرحمك مما يقول الناس فيك ، فقال :

ـ ياابن أخي أسـمعتني أقول فيهم شـيئا ؟ قال : لا ، قال : فاباهم فارحم !

هذا الرد الوجيز البليغ يكفي على قصره انيكون مفتاحا لشخصية قائله ، فانه ليكشف لك النقاب عن مشـاعره وأحاسيسه لنرى بذاته الداخلية افقا رحيبا من التسامح والعفة والنقاء ! وهذا بعض ما جذب المنصور اليه فبعث يستدعيه ! !

نقد فكر عمرو بن عبيد في دعوة المنصور اذ بلغته ، واخذ يسأل نفسه : ماذا يروم مني هذا الرجل ، وقد اعتزلت قصره وبلده ، وما فكرت في زيارته منذ ولي أمور الناس ، مع أنه كان من اصـدقائي الاقربين أيام شبابه في الحكم الأموي ، فكان ينزل الى مسكني فيعرف زوجتي واولادي واقربائي ، ويرى بنفسه ما آتي وما ادع من الأمور !! لقد مضت السنون الطويلة دون أن اخطر على باله في مضـمار عظمته المرهوبة ، وسلطانه العريض ! يعلم الله انى افر من هؤلاء المتسـلطين فرار الصحيح من الأجرب ، واعرف ان في التقرب اليهم مشاركةايجابية فيما يقترفون من المآثم ، ان لم يجابهوا بالنصيحة الحاسمة ، والمعارضة الصريحة ، كما أمر الاسلام ، ثم ماذا أصنع الآن ؟ أأرفض الدعوة أم اجيبها ؟

هذا ماتردد في نفس عمرو ! غير انه لم يلبث أن قطع كل تردد ، وصمم على زيارة ابى جعفر لا ليلاطفه ويخـادعه ، بل نيقول له كلمة الحق فيما يأتي من الاشياء ، وهو بعد كما يعلم المنصور لايخشى في الله لومة لائم ! .. بل يقذف بالحق على الضلال .

فكر أبو عثمان في أثناء طريقه فيما سيواجه به أبا جعفر من أشياء، فهو في ميزانه النزيه قد حاد عن طريق الخلافة الراشدة فيما قام به من تجبر وارهاب ، اذ جعل كل همه ان يثبت قوائم عرشه فتم ذلك على أشلاء الضحايا ، ومع رنات الثكالى والنادبات ، ولم يعتبر بما اصاب الدولة الاموية من انهيار ، حين سلك مسالكها الوبيء ، بل لم يعتبر بما حكاه القرآن عن ارم وعاد وفرعون ذي الاوتاد ممن طغوا في البـلاد ، ولا بد أن يواجه بذلك ليرتدع عن غيه ، ولن يهتم عمرو بعاقبـة ٠ فحسبه ان أدى أمانة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في دنياه ، ثم ان الخليفة من ناحية ثانية قد نكس ببيعة ولي العهد واجبره على النزول عن حقه لولده المهدي ! وولاية العهد عن طريق الوراثة في منطق عمرو وفي رأى الاسلام الصحيح مفسدة تضر بالدولة وتقدم الفشل الكسول ليحتل مكان الحازم الاداري الصبور ! فليواجه أبو جعفر بذلك ليـكون على بصيرة مما تحت قدمه من بركان ٥ أما حاشيته المتملقة ، فلا بد أن ينالها

نصيب من اللوم والتفريط ، فقد كانت عون الباطل على رسالته ، وما برحت تميل مع السلطان حيث يميل لتضمن اتجاه الزائف ، وتختلس فى نطاق الرياسة ما تصل اليه الأيدى من قصور وضياع وأموال ! وتلك ثالثة الاثافى فى منطق العالم الصابر الزاهد !

وحان موعد اللقاء ، فما ان علم ابو جعفر بوصول عمرو حتى اسرع فى استدعائه وتخطى الى حضرة الخلافة مئات الوجهاء من الاعيان والقواد والعلماء ، ممن قعدوا يلتمسون الاذن ، وينتظرون على أحر من الجمر ان يشملهم الخليفة برعايته ، فيسرع فى قبول المثول ، وقد علم الخليفة من سيلاقى من العلماء المخلصين ! فوطد نفسه على الاستكانة والامتثال ، وحسبه ان يسمع صوت الحق النزيه بريئا من الاغراض والشبهات ، وادركته حصافته ، فرأى أن ينتقل من حجرة الخلافة ذات الارائك المذهبة ، والنمارق المزركشة الى حجرة متواضعة ،فرشت بالحصير كيلا يعلن الرجل احتجاجه قبل السلام !!

وقد هش للقاء صاحبه وعانقه وقبله ، ثم رفع اليه عينه وهو يقول فى انكسار : عظنى يا أبا عثمان !

نظر عمرو الى الخليفة نظرة تنطق بجميع مايضمر من سخط وانكار ، ثم جللته سكينة وضيئة جعلت وجهه طاقة من نور ، واندفع يقرأ بعد البسملة قول الله :

« الم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الاوتاد الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ، ان ربك لبالمرصاد » ، وكرر الآية الاخيرة فى تحد جرىء عنيد ففهم امير المؤمنين مايعنى أبو عثمان ، وملكته رعشة مرنحة فتساقطت من عينه الدموع !! .

فلم ينقطع الرجل عن قوله ، وصاح : ان الله اعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها ، واعلم ان هذا الامر الذى صار اليك انما كان فى يد من كان قبلك ثم أفضى اليك ، وكذلك يخرج منك الى من هو بعدك ، وانى لاحذرك ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة يا أمير المؤمنين !!

وكان سليمان بن مجالد كبير حاشية المنصور يسمع ويرى فاستفظع ماطرأ على الخليفة من حزن واضطراب ، وصاح بأبى عثمان رفقا بأمير المؤمنين فقد أتعبته منذ اليوم !

فرفع عمرو راسه وقال له : من انت ؟ فقال ابو جعفر : أو لاتعرفه

يا أبا عثمان ؟ قال : لا ، وما ابالى الا اعرفه ! فأجاب المنصور : هـذا اخوك سليمان بن مجالد ، فضحك عمرو متهكما وقال : هذا أخو الشيطان ويلك يا ابن مجالد ! خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين ، ثم اردت ان تحول بينه وبين من اراد نصيحته ! يا أمير المؤمنين : ان هؤلاء اتخذوك سلما لشهواتهم ، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب ، فاتق الله فانك ميت وحدك ، ومحاسب وحدك ومبعوث وحدك ، ولن يغنى عنك هؤلاء من ربك شيئا !! .

اخذ الحاضرون من رجال الحاشية بصراحة ابى عثمان ! وعلموا ان الرجل قد هتك بصائرهم المدخولة بما قال ، وعقـدت رهبة الحق السنتهم فتدافعوا يتلاحظون بنظرات ضارعة منكسرة ، وتطلعوا الى الخليفة فى حذر فسمعوه يقول : ياأبا عثمان اعنى بأصحابك فأسـتعين بهم دون هؤلاء ، فرد الرجل فى قوة : اظهر الحق يتبعك اهله ! .

يالها من ساعة حرجة فرج فيها العالم الناصح عن نفسه بعض مايعتلج بها من شجون لقد ذكر رايه صريحا فى جبروت الحاكم وطغيان الحاشية ، وبقى أن يعلن رايه فى المهدى ولى العهد الجديد !! فنظر بين الحـاضرين الى شـاب مترف عليه دلائل الامارة والجـاه ، وتوقع باستشفافه الملهم أن يكون الشاب ولى العهد ، فرفع رأسـه ليسأل المنصور : من هذا الفتى يا أبا جعفر ؟ فرد الخليفة : هذا ابنى محمد ، وهو المهدى ، ولى عهد المؤمنين ، فاهتبلها فرصة سانحة وقال : والله لقد سميته اسما ما استحقه بعمل ، وألبسته لبوسا ماهو من لبوس الأبرار ، ومهدت له أمرا أمتع مايكون به أشغل ماتكون عنه !

تضايق الخليفة من صراحة الرجل ، وأراد أن يتخلص من لقائه فسأله فى تصنع : هل من حاجة ؟ فقال : نعم ، فتعجل ابو جعفر يسأل: وما هى ؟ فقال أبو عثمان : الا تبعث الى حتى آتيك ! قال : اذن لانلتقى. قال : عن حاجتى سألتنى ، ونهض قائما فودعه الخليفة ، ومكث حائرا لايدرى مايصنع ، فكأنه تقيد فى مجلسه ، ثم جعل يفكر فى منطق هذا البطل العظيم ، وكيف صدقه القول حين كذب عليه الناس ، وتذكر - بكل مرارة - فاقته وحرمانه وكيف ضن معهما بكرامته أن يأخذ درهمـا أو دينارا هما بعض حقـه فى بيت المـال ، وتدافعت فى مخيلة الخليفة صور المتملقين والمادحين ، ممن يتلمسون الكسب الكثير وراء نصيحة خادعة ، أو مشورة موهومة ! وكم شاهد فى مدى حياته مئات من هؤلاء يتوجهون اليه وبريق الذهب يخطف ابصـارهم فمـا يزالون يسـألون ويلحفون !!

انه ليكشف دخائل هؤلاء جميعا فيرى نفسه - وهو الخليفة -

فريسة يتطلع اليها الصائدون بحبائل مستترة ، تدب خفية الى خزائنه ووظائفه ، فتفوح منها رائحة الاثرة والاستكلاب !!

وما يزال صدره يجيش بأمثال هـــذه المعانى ، حيث تجبره على التعبير عنها فى نغم منظوم ، فيجده يغنى بهذه الشطرات البايفة .

كلكم طالب صيد ·· كلكم يمشى رويد ·· غير عمرو بن عبيـد

فأى عالم ذلك الذى رنح أوتار الخليفة حتى دفعه ــ وهو غير شاعر ــ الى مديحه بشطرات من الشعر كانت فى حقيقتها متنفسا سريعا لمشاعره المتلاطمة ! ذلكم هو أبو عثمان عمرو بن عبيد !!

أبو حنيفة لا يكترث بالمنصور

كانت شخصية أبى حنيفة أقوى وأعظم من أن تخضع لطغيان ، فقد وهب من عزة النفس ورصانة الخلق ، وشدة الاحساس بالكرامة والرجولة ما جعله بين المناضلين الأماثل قمة شماء ٠

وأكبر الظن أن آراءه الفقهية لم تتمكن من حقب التاريخ على مر عصوره هذا التمكن الصخرى بين الناس ٠ الا لأن صاحبها الماجد كان ذا شخصية راسخة متمكنة ، تواجه الحجاج فى معترك الفقه ببسالة صامدة ، كما تواجه الحجاج فى معترك السياسة بعزة كريمة !! فقد كان رضى الله عنه من أقوى المتكلمين مناظرة وحوارا ، ثم تحول الى الفقه ، فخلع عليه من جلال المنطق وقوة القياس ودقة الاستنباط ، ما فتح به ميادين مغلقة ، ومهد طرقا مستعصية ٠ وقد كان خصومه فى الرأى الفقهى يدهشون لقوة سطوته وسرعة بديهته ، حتى ليخافوا أن يواجهوه فى معترك النقاش ، وهم بعد أصحاب منطق ونص ، وأهل تفسير وتشريع!!

هذه الشخصية المثالية ، عرفت كيف تحافظ على كرامتها العزيزة ، فى دنيا المطامع والرغبات ، فلم يشأ أن يستظل بوال يغـــدق عليه من رزقه حين يتفرغ للفقه والدرس كما فعل كثير من العلماء ، ولكنه ربأ بعزته أن يمن عليها مان بصنيعة ، فامتهن التجارة ليجد من أبواب الرزق ما يساعده على رفاهة عيشه فى تصون واباء ، وقد صدقت نيته ، فوسع الله عليه كل خير ، وأصبح من الثراء بالموضع الذى يجعله يتصدق بالآلاف والمئين ، وهو بعد مهيب الجانب سامى التقدير ٠

وقد شاء له الحظ أن يحترق بنيران السياسة ، فكشفت عن جوهره الذهبى ، اذ أنه نشأ فى الفترة العصيبة التى أدت الى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، فشاهد عهدين يختلفان فى الأشخاص والأسماء ، ويتحدان فيما كان من تهور البغى ، واستفحال الشر ، وأخذ البرىء بذنب الآثم ، وارهاب بما يمنعه الدين والشمم الكريم ٠٠٠ حتى خاف كل مسلم على نفسه ، وأخذ يتوقع الشر صباح مساء !!

كان الحكم الأمـــوى قد طغى شره ، واستشرى خطره ، فالخلفاء يظلمون ، ويعاهدون فيغدرون ، ثم يرسلون من الولاة من يترضـــاهم بالعنف والقهر ، فيبالغ فى اراقة الدماء وتكميم الأفواه دون حســــاب ،

وقد قامت الثورات الناقمة فى كل مكان ، فكانت تنتهى بمجازر رهيبة . تسفك فيها الدماء دون تحرز ، بل ربما كانت شدة الانتقام دليل التغلب. وبرهان الانتصار ، والمشفقون من ذوى الاصلاح فى الأمة لا يجدون من القوة ما يدفع البغى فتغلى نفوسهم من الغيظ والحنق متطلعة الى صباح جديد تشرق شمسه بنور الهداية والسداد ، وأبو حنيفة فى مقدمة هؤلاء، يرى البغى فيستنكر ، ويهم بالثورة عليه فلا يجد من يلتف حوله ثم يتذكر عواقب الثورات ، وما صنعت بزملائه الفقهاء كزيد بن على وسعيد ابن جبير فيصعد من صدره آهة حبيسة ، ويتطلع الى نصر من الله وفتح قريب !

فى أثناء هذا الضيق الكاظم المستحكم جاءه رسول الطاغية يزيد ابن هبيرة حاكم العراق يدعوه الى أن يلى القضاء ، مع فريق من رجالات الفقه والتشريع ، وكان للامام بصيرة لا تخطىء ، فقد أدرك أن هذا الطاغية السفاك ورؤساءه من الخلفاء يريدون أن يتخذوه وأمثاله من العلماء مطية للشر ومركبا للخطر ، اذ يتخذونهم للقضـاء فيعلمون الناس أن رجال الفقه وحماة الشريعة يؤيدون حكمهم الطاغى ، ويباركون عهدهم الظالم . فيصبحون أداة تخدير تخذل الحق وتعين الباطل ، ويالهـــا من كارثة دهياء .

لقد أجاب الى ذلك بعض الزملاء من الفقهاء ، ولكن الناس معادن مختلفات ، ومعدن أبى حنيفة من الذهب النضار ، فهو لا يخدع بمنصب ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب ، فاعلن الرفض صريحا واضحا . وقال لمن يحاوره من العلماء فى عزة كريمة : « والله لو أراد ابن هبيرة أن أعد له أبواب « مدينة » واسط لم أدخل فى ذلك ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل مؤمن واختم أنا على ذلك الكتاب ، والله لا أدخل فى ذلك أبدا » .

واستعظم الوالى الطاغية رفض أبى حنيفة فسجنه أسبوعين عساه أن يرجع فما استكان ، ثم أمر بضربه بالســـياط . فكان يجلد كل يوم عشرة أسواط حتى تخطى المائة ، وأشفى على الهلاك ، ولا يزداد الا ثباتا أمام الله ، فيالعظمة الايمان !

كان ما لابد أن يكون ، فقد سقطت الدولة الأموية على طغاتهـــا الجبارين ســقوطا أورثهم القتل والفنـــاء والتشريد ، « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شـديد » جاءت الدولة العباسية ففرح المخلصون لقيامها ، وظنوا أن أسرة العباس عم رسول الله سترعى من الكرامة والحق ما أهدره بنو أمية ، فتدعو الى الخير بالتى هى أحسن آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، ولكن الظن قد خاب ، وصدم

هؤلاء المخلصون فى آمالهم حين رأوا الدولة الأموية تعود ثانية ببطشها الغاشم ، وقهرها الظالم تحت ستار أسماء تنتسب الى رسول الله ، وتهدر شرعته فى احتاق العدل واستتباب الأمن ، وكانت محنة قاسية نزلت بالمؤمنين فأخذوا يتساءلون ملتاعين : متى نصر الله ؟

كان أبو حنيفة أشد هؤلاء المخلصين ضيقا بالشر ، وتبرما بالخلافة فاهتبل ثورة «النفس الزكية» وانضم الى رجالها ، وأفتى بتأييدها كما فعل زميله الامام مالك بن أنس رضى الله عنهما ، وتعرضا بذلك الى شر كبير ، وخطر محيق ، فقد هال المنصور أن يجد أعلام الشريعة يقفون منه موقفهم من الأمويين ، ثم رأى أن يترضى ويصانع ، ليصل بهم الى هدنة مسكنة فيستريح !!

ولم يكن الخليفة يجهل من أبو حنيفة ؟ . فقد عرفه فى العهد الاموى غيورا لم يخش الا الله ، وهو بعد تاجر ذو ثراء لا يطمع فى مال السلطان أو منصبه ، وله من حلقات الدرس ، ومن تلاميذه المنتشرين فى الآفاق ما يضفى عليه الصيت الطائر ، والذكر الحميد على عزوفه – رضى الله عنه – عن كل ما يطمع فيه العامة من سيادة قدر ، ونباهة ذكر ، كما عجم عوده يوم احتكم اليه مع زوجته ، فرأى منه فقيها صلبا لا يتخشع ولا يلين ، فقد كان فى شقاق مع زوجته الحرة وأراد أن يقترن بأخرى . فعظم الامر عليها ولاقته مغضبة ساخطة ، فاحتج عليها بانه لايصدر فى زواجه بالثانية عن غير أمر الله ، ثم رأت أن تحتكم الى أبى حنيفة وحده ، ووافق المنصور فى سهولة . ظنا منه أن الحكم الشرعى من الوضوح . بحيث لا يقف أمامه أبو حنيفة ذو الرأى والقياس ، وحانت ساعة الحكم ، فقال أبو حنيفة : ليتكلم أمير المؤمنين . فقال أبو جعفر : يا أبا حنيفة كم يحل للرجل أن يتزوج من النساء فيجمع بينهن ؟ فقال : أربع . فسأله ثانيا : وهل يجوز لأحد أن يقول خلاف ذلك ؟ فقال : لا ، فنظر المنصور الى زوجته متهللا وقال :

« قد سمعت يا هذه ! فتدارك أبو حنيفة يقول فى مجابهة انما أحل الله هذا لأهل العدل يا أمير المؤمنين ، فمن لم يعدل أو خاف ألا يعدل ، فينبغى ألا يتجاوز الواحدة . قال تعالى « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة» فينبغى أن نتأدب بأدب الله ونتعظ بمواعظه ، فسكت أبو جعفر على غيظ ، وطال سكوته . فاستأذن الامام وخرج ذاهبا الى منزله ، فوجد خادم زوجة الخليفة فى انتظاره يحمل مالا وثيابا ومعه دواب وجارية فرد ذلك فى اباء وقال كلمته المشهورة : انما ناضلت عن دينى ، وقمت ذلك المقام لله ، ولم أرد شيئا من أمور الدنيا !!

وعادت الهدية ثانية ليراها أبو جعفر فيتدبر .

هذا الموقف الحاسم قد أكد للخليفة ثبات الامام ، وقوة يقينه ، ورأى فيه هضبة عسرة المرتقى ، ومطمحا لا ينـــال . وصمم أن يتغاضى عن معارضته ويجر عليه ذيل التهاون ، ولكن حوادث الزمان لا تتيح له أن يهمل رجلا ذا مكانة عالية ، ورأى مســموع . وسيصطدم به رفض أو أراد ، وقد تحقق ذلك عاجلا حين دعا أبو جعفر علمـاء العراق ، ليأخذ رأيهم فى أهل الموصل ، حين اشترط عليهم أن يستحل دمــاءهم اذا انتقضوا على حكمه ، ثم ما لبثوا أن خالفوا الشرط فهبوا ثائرين !

قال أبو جعفر لمن حضره من العلماء : ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم «المؤمنون عند شروطهم» ، وأهل الموصل قد اشترطوا الايخرجوا على ، فان فعلوا حلت دماؤهم باقرارهم الصريح ؟

فرد أحد الحاضرين : يدك يا أمير المؤمنين مبسوطة عليهم ، وقولك مقبول فيهم ، فان عفوت فأنت أهل العفو ، وان عاقبت فبما يستحقون ، فنظر الخليفة الى أبى حنيفة وسأل : وماذا تقول أنت ؟ ألسـنا الآن فى خلافة نبوة وأهل ايمان !

فرفع الامام ــ نضر الله وجهه ــ صوته يقول : انهم اشترطوا لك مالايملكونه وشرطت عليهم ماليس لك ، لان دم المسلم لايحل ، وشروط الله أحق ماتوفى به .

فاضطرب أبو جعفر ، وامتقع وجهـه امتقاعا يدل على ما يتلدد فى صدره من غيظ ، ثم أذن للعلماء فانصرفوا ، واستبقى أبا حنيفة فخلا بهما المكان وصاح أبو جعفر : لقد أحرجتنا أمام الناس ، فانصرف الى بلادك ، ولا تفت بما هو شين على امــامك ، وخرج من المجلس مغضبا ، فخرج أبو حنيفة غير هياب .

وبعد : أفيترك الخليفة أبا حنيفة يعلن عن رأيه صريحا فى جبروت الخلافة وطغيانها ، وله من الاتباع والانصار ما يعتقدون رأيه ويؤمنون بكل أحكامه ، فيتسع الخرق ، وتهب الريح أم يبادر بتلمس أسباب المكيدة له ، فيرتاح من خصم عنيد ؟ لقد تذكر أبو جعفر أن يزيد بن هبيرة قد عرض عليه القضاء فرفض فكان نصيبه السجن والضرب بالســياط . فلماذا لا يعرض عليه القضــاء كما فعل يزيد ، والرجل لا محالة رافض اباء ، فاذا وقف موقفه السابق ، فقد دنت ساعة القصاص وكان ابوحنيفه منطقيا مع نفسه حين جاهر بالرفض ، فالطاغية الظالم فى منطق الاسلام طاغية يجب أن يحارب سواء أكان أمويا أم عباسيا ، وحكم القضاء لديه لابد أن يسير وفق هواه ، والا فليست لدى القاضى العادل قوة ما ، تحتم التنفيذ والارغام ، وأصر أمير المؤمنين وأصر الامــام ، وحلف أبو جعفر

ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل وقال : انى لا أصلح للقضاء · فقال الربيع بن يونس وزير أبى جعفر :

« ألا ترى أمير المؤمنين يحلف » فرد أبو حنيفة فى صراحة عنيدة :

أمير المؤمنين أقدر على كفارة أيمانه منى !! فأمر به أبو جعفر ، فقيد الى السجن واستدعاه بعد أيام وسأله : أترغب عما نحن فيه ؟ فأجاب :
ـ أصلح الله أمير المؤمنين ـ لا اصلح للقضاء · وهنا صاح الخليفة منفعلا : كذبت ·

فلم يخن الامام منطقه الصائب وقال : لقد حكم على أمير المؤمنين أنى لا أصلح للقضاء لأنه ينسبنى الى الكذب ، فان كنت كذابا فلا أصلح ، وان كنت صادقا فقد أخبرت أمير المؤمنين بعدم صلاحيتى للقضاء !!

واشتط النزق بالمنصور ، فأمر بالسياط أن تنهال على جسد الشيخ الواهن تشويه فى محبسه الرهيب ، حتى اكتملت مائة وثلاثين سوطا ، فخرج عبد الرحمن بن على بن عباس عم الخليفة وصاح به : لقد سللت على نفسك مائة ألف سيف ، هذا فقيه أهل المشرق يضرب بالسياط فى غير جرم ، دون أن تخشى انتقام السماء !!

فتراجع أبوجعفر وقد هدأت نفسه قليلا ، فأمر باطلاقه من السجن ، وأرسل اليه ثلاثين ألف درهم ، فلما وضعت بين يديه رفضها فقيل له : لو تصدقت بها على المحتاجين ، فرد فى استهانة : ومن يضمن لى أنهـــا جمعت من طريق الحلال ·

وبلغت الكلمة آذان المنصور فكانت عليه أشد وقعا من النصال ! ثم جاءته الأنباء بوفاة أبى حنيفة متأثرا بجراحه ، فأطرق قليلا يستعرض عجائب بطولته ، ثم رأى أن ينصرف الى مهــــام خلافته ، فقـد استراح أبو حنيفة حين انتقل الى جوار الله ، راضيا مرضيا وبقى هو حائرا يفكر فيما أسلف فى دنياه من أهوال يطول عليها الحساب · !

عظمة مالك بن أنس وإباؤه

لقد كان الامام مالك معاصرا لقرينه وندّه الامام أبى حنيفـــــة ، جمعتهما محنة واحدة حين اشتركا فى الافتاء ضد أبى جعفر ، فكان من الأنسب أن نخصه بهذا الحديث بعد ما تقدم عن صاحبه الكبير !!

على أن هناك فرقا واضحا بين الرجلين فى مسلكهما ازاء الخلفاء . فابو حنيفة مجانب لا يقرب السلطان ، ومالك يرى المنفعة فى زيارة ولى الأمر ، ويظهر ذلك جليا واضحا فيما ننقله من هذه النصوص ٠

فقد روت كتب التاريخ قوله رضى الله عنه : حق على كل مســـلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل الى ذى سلطان، فيأمره بالخير وينهاه عن الشر ، ويعظه حتى يتبين دخول العالم على غيره ، فان وعظه ونهاه فهو الفضل الذى ليس بعده فضل ! ٠

وسئل : لماذا تدخل على السلاطين ؟ وهم يجورون ويظلمون ٠ فقال للقائل : رحمك الله وأين التكلم بالحق !!

بل انه ليمعن فى الأمر روية وتفكيرا ،حين يدركه الضعف الجسمى ، فيعتزل المسجد بعض الوقت ثم لايعتزل دار الحكم ويسأل فى ذلك فيقول . وأما اتيا ى الامراء فبالحمل منى على نفسى ، فانه ربما استشير بعض من لا ينبغى أن يستشار !!!

واختلاف الامامين أبى حنيفة ومالك فى هذه الناحية مما غرســـه الله فى قلوب البشر ، اذ لو شاء ، لجعل الناس أمة واحدة ، ولكل وجهة هو موليها ٠ !!!

والحق ان جلال العلم ووقار الايمان كانا يلفان مالكا بهالة وضاءة ذات تقدير واكبار ، حتى انه ليعارض رؤساء الدولة وأمراءها دون وجل أمام الاشهاد ، وتبلغ به عزة العلم مبلغا تهون لديه أبهة الحكم ، وروعة الجاه ، وقد عرف الامام قدره الرفيع فلم يهبط من أوجه المثالى بل ظل سامقا تتطلع اليه العيون فى خشية واكبار ٠

لقد سعى الخليفة المهدى الى منزله ، ووراءه حشد من الاتبـــــاع والأجناد ، ثم استأذن فى الدخول وظن الناس أن مالكا سيسرع باستقبال

أمير المؤمنين على عجلة واندفاع ، ولكن الوقت يطول ، والامام داخل منزله لا يبرح ، والخليفة محرج لا يدرى ، ماذا يصنع أمام رعاياه ؛ حتى اذا نفد الصبر بعد أمد طويل ، خرج الامام متئد الخطو ليقول فى صراحة بريئة : كنا نصلح منزلنا دون عجلة ، ليرى الناس لدينا ستر السماء ونعمة الله !!

وألح عليه المهدى أن يسعى الى قصره ليعلم ابنيه موسى وهرون . فنظر الرجل فى هدوء الواثق ، وصاح فى حزم : لا يا أمير المؤمنين العلم يؤتى ولا يأتى ، واضطر الخليفة أن يبعث ولديه ، فكانا يقفان على المنزل فيدقان الباب ، والريح تضرب وجهيهما بتراب العقيق ، حتى يأتى الآذن فيسرعا بالدخول !

ومضت الأيام ومات المهدى ، ومن ورائه الهـــادى وأصبح هارون الرشيد صاحب الأمر فى ديار الاسلام ، واشتاق الى أن يجالس مالكا ، فى قصره ببغداد وأنى !! وقد تعذر ذلك على أبيه وأخيه ، ثم رأى أن يكبت رغبته ، ويزوره بالمدينة فى موسم الحج ، فيسمع منه حديث رسول الله ليعلم القاصى والدانى أن الخليفة العظيم من تلاميذ امام دار الهجرة ، فتزداد مكانته بين الناس ، ويستشعر لذة تغمر نفسه ببهجة وارتياح ، وعلم الامام أن أمير المؤمنين ناهض لزيارته ، ليأخذ مجلس التلميذ من الاستاذ ، فاغتسل رضى الله عنه ولبس ثيابا جددا ، وتطيب ووضع مجامر النـــد والعود ، وهذا ما كان يفعله دائما تعظيما لحديث رسول الله لا حفاوة بالزائر الكبير !! حتى اذا حضر الخليفة قال له مالك : تقرأ على ، فخشى الرشيد أن يخطىء أمام الجمهور فقال فى ارتباك : تقرأ أنت ان أردت ، فقال مالك ما قرأت على أحد منذ زمان ، فأطرق الرشيد ثم قال : اذن فأخرج الناس عنى ، فرد مالك فى روعة وايمان : ان العلم اذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينتفع به أحد !! فقال الرشـــيد : ليقرأ بعض أصحابك ان أردت ، فأمر مالك تلميذه المغيرة فقرأ ، وجعل يفسر مايقرأ ، والرشيد وحاشيته وعامة الحاضرين منصتون ، كأن موسيقى عذبة تترنم بها ملائكة الله فى أجواز السماء !!

هذا الاعتزاز النادر بالعلم قد سما بأصحابه سموا لا يبلغه غير ذوى النفوس الموهوبة ، من حملة الرسالات وأرباب الأصلاح وقد حرص مالك على التزامه ، مهما ترك من الأثر الفعال ، فقد دخل الرشيد ذات عام عليه ، فأخذ مكانه الى جواره فى مجلس الحديث ظانا أنه لم يفعل فى ذلك مايوجب الملام ، ولكن مالكا يصيح : يا أمير المؤمنين : من تواضع الى الله رفعه ومن تكبر على الله وضعه ، فيلتفت الرشيد مأخوذا ويسأل : ماذا صنعت ؟ فيقول مالك : ان من اجلال الله اجلال ذى الشيبة المسلم فى مجلس علمه ،

فقم واقعد بين يدى ، فأسرع الرشيد ممتثلا حتى اذا انتهى من درسه قال لبعض خلصائه :

« اننا نتواضع لننتفع به ، وقد تواضع لنا سفيان بن عيينة فلم ننتفع به شيئا ٠٠ ونحن نقول كلمة الحق حين نذكر للرشيد هنا هدوءه وانتصاحه ، وقد كان فى وسعه أن يغضب على الأقل ٠ أو يبادر بالانسحاب !!

ولم يبلغ الامام رضى الله عنه هذه المنزلة . اعتباطا بل ارتفع الى قمتها العالية بعد جهاد طويل ، وامتحان شاق تجلى عن ايمانه وعزمه ، فصارت له فى نفوس المسلمين مكانة مبجلة ، وانتشر تلاميذه فى الآفاق يحملون المأثور من علمه ، والجليل من افعاله ، وصارت الرحلة الى مدينة رسول الله واجبا أكيدا ، يقوم به طلاب العلم فى شتى الامصار ، ليروا مالكا وينقلوا افتاءه ، ويسجلوا اسناده ، وكان اذا بدأ الدرس خشعت الاصوات ، وأطرقت الاعناق حتى قال فيه القائل :

يدع الجواب فلا يراجع هيبة   والحاضرون نواكس الأبصار

وحسبك أن تزدحم مدينة رسول الله لعهده بتلاميذ الصحابة والتابعين ثم يمضى المثل الشرود قائلا : لا يفتى ومالك فى المدينة !! وسنعرض هنا بعض ما تحمل فى سبيل الحق من عذاب ، حين جابه الطغيان بافتائه الناصع ، فأرهب الخلافة وأفزع السلطان !!

لم تكد الأيام تمر بمفاجآتها وصعابها على الدولة العباسية حتى تألبت على أصحابها الجموع الحاشدة ، اذ لمست مدى الخيبة الأليمة فى آمالها وأهدافها ، ورأت أن السفاح والمنصور كليهما يسيران فى طريق بنى أمية تنكيلا بالضحايا ، وسفكا للدماء ، ونظر المسلمون فوجدوا ان أصحاب الحق من العلويين يحاربون ويضطهدون ، كأن أمية لا تزال تأخذ على أبناء فاطمة طريقهم ، فلا يجدون نفعا فى الارض أو يطيرون بجناح الى السماء ، وتجمعت الرغبات فى الصدور ملتهبة محتدمة ، حتى تمخضت عن ثورتين بالمدينة والبصرة قام بهما محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه ابراهيم بن عبد الله !! وارتجف المنصور ارتجافا أذهله وشرد أمنه ، فأخذ يتوقع الشر الماحق من حين الى حين ، ثم جاءته الأنباء أن كبار العلماء من أمثال أبى حنيفة ومالك يؤيدون الثائرين ، ويرسلون الفتاوى فى تحبيذ الجهاد ومحاربة الطغاة !! فاستعان الخليفة بحيلته الماكرة ، وأخذ يخادع ويداهن ، حتى استطاع أن يستميل الكثيرين من مناوئيه باذلا مغريات الوعود من جاه ومنصب وثراء ٠ ولكن أحابيله الخادعة لم تستطع أن تمتد الى الامامين الكبيرين فى شىء ، واذا كنا فى الموضوع السابق قد تحدثنا

عن أبي حنيفة ، فنحن هنا نتحدث عن مالك لنسجل أنه شـاهد بعض المترددين في تأييد الثورة ينكصون عنهـــا بحجة انهم بايعوا المنصور ، فلا يجوز لهم أن ينقضوا البيعة بعد أن حلفوا الايمان المؤكدة بالطلاق على الطاعة والاذعان ، فأصدر رأيه الحاسم بان طلاق المكره لا يقع ، وهم قد بايعوا المنصور مكرهين فلهم أن يتحللوا من بيعته غير آثمين .. وطارت الفتوى الى المنصور فكادت أن تزلزل ثباته ثم رأى أن يستوثق فأرسل يهادنه ويستميله فما رجع رسوله بطـــائل ، بل قال له انه استمع الى مجلس الامام بالمدينة ، فرأى سائلا يسأله عن الثائرين على الخلافة : هل يجوز قتالهم ؟ فأجاب في غير تحفظ : ان خرج الثائرون على مثل عمر بن عبد العزيز عدلا واستقامة جاز قتالهم ، والا فهم طلاب حق مشروع !

وجاء سائل آخر فسأل عن نكاح المتعة بعد أن فشا بين الأمراء من بني العباس ، وفيهم خاصة المنصور وأرباب مشورته ، وأعوان طغيانه ، فاعلن انه نكاح باطل وان ما يروى في حديث ابن عبـــاس عن جوازه مكذوب موضوع !! وليست الفتوى في هذه المسألة مشكلة فقهية يختلف فيها رأى عن رأى ، ولكنها طعن سياسي يتجه الى عصابة الحكم ويدمغهم بالعصيان ، فيزيد الناس نفورا وامتعاضا ، ويبذر كثيرا من بذور الفتنة والشقاق !!

وقد شـــاءت الاقدار أن يقضى أبو جعفر على الثورة ، ويقتل بني عمومته من الثائرين ، وليس من منطق الاشـــياء في قانون متجبر طاغية كالمنصور أن يعفو عن خصومه من العلماء ، ومالك في طليعتهم ، فصب عليه سوط عذابه ، وأمر عامله على المدينة فجرده من ثيابه دون ما يستر العورة ، ثم طرحه على الأرض وأوثق رجليه ويديه بالحبـال الغليظة ، وانهالت السياط على الجسد المؤمن الصابر حتى بلغت الثمـــانين وترك مغمى عليه وهو بعد شيخ كهل ، يسير في العقد السـادس من عمره . وقد بقيت آثار السياط على جسده ، فلم تفارقه حتى لقى الله !!

وكان في الرجل بقية من قوة ، فاستطاع أن يحفـظ توازنه بعد المحنة ، على حين مات أبو حنيفة متأثرا بسياطه ، وشاع الحزن في بغداد وسائر مدن الاسلام على الامام الفقيد والامام المريض ورن الصدى الساخط في أذن المنصور فندم ولات ساعة مندم ، وعلم أن الامر قد نفذ في أبي حنيفة اذ فصـــل الموت ما بينه وبينه ، ولكن مالكا لا يزال حيا بعد !! فسعى اليه معتذرا متندما ،وأخذ يحلف أمام الجموع الناقمة أن عامله على المدينة هو الذي قام بجلد الامام دون مشورته ، وأتقن الدور فعزل العامل وعذبه ، تحقيقا لقول رسول الله : من أعان ظالما على ظلمه سلطه الله عليه بعذاب !!

وأخذ يزور الامام ويلاحقه ، باعتذاره تنفيسا عن ألم يجيش بنفسه، فلا يجد التسكين !! وقد بالغ فى احترامه وتوقيره مبالغة ورثها عنه ولده المهدى ، فحفيداه موسى وهرون ، على نحو ما سلف فى صدر هذا المقال ٠

وبعد فمهما تجبر أبو جعفر وتكبر ، فقد أرغمته عظمة الايمـــــان وجلال العلم ، وثبات اليقين متجمعة فى مالك رضى الله عنه ، أن يقول له فى انكسار : والله الذى لا اله الا هو ما أمرت بالذى كان ولا علمته ، وانه لايزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وانى اخالك أمانا لهم من عذاب الله ، وهو قســــم سياسى محنك يبطله الحق الواقع والبرهان الملموس ٠

لقد كان مالك رجلا ! وحسبه تلك الرجولة من فخر ٠!

يعقوب بن السكيت يستشهد

كنت أشرت فى عبـــارة موجزة بأحد أعداد مجلة الأزهر (صفر ١٣٨٠ هـ) الى ابن السكيت وموقفه الجرىء فى نصرة الحق · ثم قابلنى من صفوة القراء من يطلبون تفصيل الحديث عن هذا الشجاع الباسل ليكون بجرأته الصريحة قدوة محببة لمن يلتمسون المثل الصـــالحة لدى علماء يقدسون الحقيقة ويجابهون الطغيان ·

وقد وجدت فى نفسى نشـــاطا سريعا الى الحديث عن الرجل ·· لان الذين كتبوا حياته لم يهتموا كثيرا ببطولته النادرة ·· واستشهاده المثالى · وانما أفاضوا فى تحليـــل مكانته اللغوية والادبية ، وتعرضوا لأساتذته وتلاميذه من أئمه اللغة والعلوم اللســـانية ، وسردوا فهرس مؤلفـــاته وتصانيفه ثم أشاروا الى موقفه البطولى فى سطور قليلة متضائلة · مع أنه ذهب شهيد هذا الموقف النادر ، فلا بد أن تفصل أدواره الرائعة باهتمام ، واذا كنا نردد فى كل مناسبة مواقف العز بن عبد الســـلام والمنذر بن سعد ، وسعيد بن المسيب ونتخذهم قمما شـــامخة فى دنيا الصراحة المؤمنة ، فلماذا لا يقرن بهم يعقوب بن السكيت وقد بذل دمه فى سبيل رأيه · أما هؤلاء فقد حفظت لهم أقدارهم فى الحياة ولم تكن لأحدهم هذه الخاتمة المؤسية الأليمة وما أريد بذلك أن أبخس جهودهم العالية · معاذ الله ، ولكنى ألحق بهم زميـــلا عالى الهمة وافر العلم أدى أمانة دينه حين جاهر حاكما ظالما بقوله الحق فخسر الدنيا ليفوز برضوان من الله أكبر ·

كانت الفترة العصيبة التى شـــهدت حياة ابن السكيت من أحلك الفترات فى التعصب والاضطهاد ، لان المأمون مع سعة أفقه وغزارة معارفه وولوعه بالبحث والمناظرة لم يشأ أن يترك النـــاس أحرارا فى آرائهم الخاصة ، بل ضاق بخصومه وشن عليهم حربا ظالمة لا طائل وراءها غير التنكيل والتعذيب والقتل فى بعض الاحيان ، مع ان صاحب الرأى الحر فى مضمار البحث العلمى يجب أن يفســـح صدره لمعارضيه ، اذ ان من الجور الشائن أن نلزم كل فرد من أبناء العقيدة الاسلامية بآراء المعتزلة فى خلق القرآن فاذا كانت لبعض المخالفين وجهة نظرهم الخاصة صحيحة أو باطلة فليس لنا أن نزجهم فى أعماق السجون ، وأن نعذبهم بالسياط ونكبلهم بالاغلال ، وعاشق الحرية الفكرية هو الذى يمنحها أنصـــاره وخصومه على السواء · أما أن يستغل نفوذه السياسى لمحـــاربة مذهب

فكرى ، لاصلة له بدعائم عرشه ، وهيبة سلطانه فهذا ما يؤاخذ به فى معرض الموازنة والحساب ·

وقد تلا المأمون من الخلفاء من نهجوا نهجه فى التعذيب والاضطهاد ، فجاء المعتصم والواثق والمتوكل ليضايقوا العـــامة والخاصة بأعنف ضروب الاعنات · واذا كان المتوكل على الله قد منع القول بخلق القرآن ونصر أهل السنة فى مذهبهم الخاص فانه انقلب طاغية جبارا يضطهد أنصار الاعتزال ويملأ بهم المحابس والسجون ، وهذا ما لا يرتضيه منصف حكيم ، لأننا لا ندعو الى نصرة فريق على فريق ، ولكننا نأمل من الحـــاكم أن يترك العلماء ومعتقداتهم ، ما دامت فى معتركها الفكرى لا تهدم أصلا من أصول التشريع ، أو تعارض ما يراه من سياسة الدولة فى الحكم والتنفيذ ·

فى هذا العصر المضطرب الثائر كان ابن السكيت يتبوأ مكانه الادبى فى مضمار التدريس العلمى والتاليف اللغـــوى والصرفى ، فأصدر كتبا كثيرة لا يزال بايدينا منها كتاب (اصلاح المنطق) شاهدا بمنهجه وعمقه واستقرائه على مكانة الرجل ودقته · وقد ذكر ياقوت فهرس مؤلفاته ص ٥٢ جـ ٢٠ من معجم الادباء فأوقفنا على كنز متعدد المعادن متنوع النفائس· فالشيخ الثبت يؤلف كتاب القلب والابدال وكتاب النوادر وكتاب الألفاظ وكتاب فعل وأفعل وكتبا مختلفة فى الفرق والامثال والوحوش والشجر والحشرات والايام والليالى وسرقات الشعراء ومعانى الشعر مما يدل على ذهن متقد وفكر جامع مستوعب واتجاه متنـــوع مختلف ·· ونحن نظلم الرجل ·· اذا وقفنا به عند المضمار اللغوى والصرفى كما يصنع مترجموه ولو كانت بأيدينا مؤلفاته الســـالفة لوضعناه فى مكانه الموسوعى على التحديد لا على التقريب ·

هذا العالم المفضـــال كان على ثرائه العلمى ذا نفس ثرية حافلة بالخلق العالى والتواضع الحميد ، وكان يزن الاشـــياء بميزان الاسلام لا بميزان التقاليد المترفعة فى عصر مختلف الأجناس والنزعات ، وهو بعد ـ كوالده العالم اللغوى اسحاق السكيت ـ كثير الصمت فى المحافل وهو صمت المفكر المتأمل الذى يغنيه خاطره المزدحم عن الاشـــتراك فى محادثة لا تسعى وراء هدف ، أو تعمـــد الى غير الاعلان والدعاء ، ولعله بسكوته المتأمل قد وفق كثيرا فى رصد معلوماته وتتبع سوانحه وتحليل خواطره ، فاذا انكفأ الى تسجيل بحوثه أو القاء دروسه ساعده التأمل الصامت على الجودة والابداع ·

قال الفراء : سألت ابن السكيت عن نسبه فقال فى تواضع : خوزى ـ أصلحك الله ـ من ذردق · فمكثت أربعين يوما فى المنزل أستحى من لقاء ابن السكيت لأنى سألته عن نســبه فصـــدقنى · وقول الفراء على

اقتضابه يرشدنا الى شيء كبير جدا عن ابن السكيت .. فالرجل وهو فى مكان الصدارة العلمية لا يخضع لمصطلحـــات عصره الزائفة فينكر مولده ومنشأه ، بل يعترف انه خوزى من ذردق . وقد وقفت كثـيرا عند هذه العبارة لان مدلولها اللغوى وحده لا يفيد الا انه من خوز ستان والنسبة اليها خوزى . ولكن مدلولها السياقى يلقى ايحاء مريبا على منزلة هـــذا المكان اتعس . والا فكيف يستحى الفراء من صدق الاجابة حتى يمكث أربعين يوما لا يقابل ابن السكيت . ولعل مما يؤكد هذا المدلول السياقى بايحائه المتواضع ما قرأته بالجزء السابع من معجم الادباء ص ١٠٩ من أن أبا عبيدة اللغوى دعا تمليذه أبا عثمان المازنى فنهره ، وقال : لا تجلس الى فسأله المازنى عن سبب ذلك . فقال أبو عبيدة : رأيتك مع انسان خوزى سرق منى قطيفة .. مهما يكن من شيء فقد كان ابن السكيت أكبر من أن يعترف بأوضاع زائفة أو يقيم اعتبارا لقيم تائهة تأخذ البرىء بجرم المذنب لو صح ان ساكنى هذا الاقليم مرقة سارقون ، ونحن بعد نرى كل مكان فى الدنيا لا يخلو من الطيب والخبيث ، ولم يخل ما كتب فى سيرة هذا الامام الكبير من افتراء مغرض ، اذ اننا نطـــالع عنه وعن غيره من كبار المؤلفين اخبـــارا كاذبة لا تثبت لنظرة واحدة من نظرات النقد النزيه ، والسبب الاول فى اختلاق هذه الاكاذيب هو الصاق المعرفة العلمية بالخلفاء والحكام تزلفا وملقا ، ثم يجيء من الرواة من ينقلها دون تمحيص ، مع انه لو فهـــم ان مهمة المؤرخ لا تقف عند الجمع الحـــاشد ، بل تتعداه الى التسديد والتصويب لاتضح له بجـــلاء باطـل ما يســجله عن الأئمة المتضلعين . فقد أجمع مؤرخو ابن السكيت على رواية هذه الحادثة الملفقة . والرواية هنا عن ياقوت (معجم الادباء جـ ٧ ص ١١٧ فى ترجمة أبى عثمان المازنى ونقلها ابن خلكان فى الجزء الخامس من الوفيات فى ترجمة ابن السكيت نفسه) :

قال الواثق لأبى عثمان : سله ـ أى ابن السكيت ـ فقال المازنى لصاحبه ما وزن نكتل من الفعـــل فأجابه ابن السكيت . نفعل . فقال الواثق غلطت ثم قال المازنى فسره فقال المازنى . نكتل تقديره نفتعل واصله نكتيل . فانقلبت الياء ألفا لفتح ماقبلها . فصار لفظها نكتال . فاسكنت اللام للجزم لأنه جواب الأمر فحذفت الالف لالتقاء الساكنين .. فقال الواثق هذا هو الجواب لاجوابك يا يعقوب .

فهذه النادرة الصرفية من الطرائف المختلقة . لان حذف العـين فى هذا الوضع ليس من الدقائق التى تفوت مبتدئا فى قواعد الصرف فضلا عن امام كابن السكيت ألف كتابا حافلا عن (القلب والابدال) وكتابا آخر عن (فعل وأفعل) ثم لا أدرى هل كان الواثق أعلم بقواعد التصريف من ابن السكيت حتى يقول له أخطأت ثم يقول للمازنى هذا هو الجواب ..

وأين تلقى كل ذلك ؟ مع أن رواية أخرى ذكرها أبو الفرج وياقوت وعشرات غيرهما تقول : ان الواثق نفسه ٠٠ قد استدعى أبا عثمان المازنى ليسأله عن خبر ان فى قول الشاعر :

أظلوم أن مصابكم رجلا ألقى السلام تحية ظلم

فليت شعرى أيفطن الى العين المحذوفة من لايفطن الى خبر ان ؟ ان الذين يحاولون أن يرفعوا الخلفاء فوق مستوى المحققين من العلماء ليفضحون أنفسهم حين يخالفون منطق الاشياء فيأتون بما تقوم آلاف الشواهد على دحضه ، وكأن الاقدار أرادت أن تكشف مبالغاتهم المقيتة حين جعلت هذه الروايات المفتراة تتعارض وتتناقض ليهدم بعضها بعضا ثم لتجلو أنقاضها الشائنة عن ميدان الحقد حين يكشفها باحث مدقق ٠ هذه أضواء متواضعة نرسلها من بعيد ، لتكشف ملامح ابن السكيت ٠ فتمهد بذلك الى حديثنا عن بطولته الباسلة ٠٠ وقد كتب عليه أن يقوم بدوره المثالى فى عهد المتوكل على الله ٠ ليلقى مصرعه الفاجع على يديه فيذهب شهيد الرجولة فى حومة الكرامة والاباء ٠ كان المتوكل على الله مبذرا متلافا وطاغية سفاكا ٠٠ أجمع على ذلك مؤرخوه فى الحديث والقديم حتى أطلق عليه نيرون العرب ٠ وفى عهده ابتدأ اضمحلال الدولة العباسية اذ ترك أمور الدولة لقواده ، وانغمس فى الملذات والشراب وانتشرت الرشوة بين الولاة والموظفين ولم يبن أحد من الخلفاء من الابنية مثل مابناه فمن ذلك القصر المعروف بالعروس أنفق عليه ثمانين ألف ألف درهم والقصر الغريب أنفق عليه عشرة آلاف ألف درهم ، والقصر المختار أنفق عليه خمسة آلاف ألف درهم ، والقصر المعروف بالوحيد أنفق عليه ألفى ألف درهم الى قصور مماثلة مثل قصر الماحوزة ، وقصر الجعفرى ، وقصر البهو ، وقصر اللؤلؤة ، وقصر الكامل ، مما يوقف القارىء على تبذير أخرق لا يرعى مال العامة ، وموارد الدولة ٠ كانت هذه القصور جميعها تحتل مكانا فسيحا بسر من رأى يسمى (المتوكلية) وللبحترى فى أوصافها من الابيات ما يعرفه الدارسون ، وهو الى ذلك السفه الأرعن ، والظلم الباطش يتندر بسب آل البيت ويرسل أعوانه الى كربلاء فيهدمون قبر الحسين ويحطمون ما حوله من الدور نسفا واحراقا ثم يعقد المجالس من علية وزرائه وخاصته ليشهدوا المضحكين ممن يمثلون أبا تراب ويستهزئون برهط على وبنيه . ويلتفت الخليفة الى جلسائه ليسمع صيحات الاعجاب ، ويرى بسمات التأييد فيعتقد انه بطل فاتح رجع من الميدان مكللا بغار النصر ومسجلا أعظم معارك التاريخ ٠

وقد عز على ابن السكيت أن يكون خليفة المسلمين بهذه الضعة التافهة من الرعونة والاسفاف ٠ وآلمه أن يسمع جلساؤه ـ وفيهم بعض

العقلاء والمتضلعين ـ أقذار السباب وأوضار الشتائم تقال على على وفاطمة والحسن والحسين وصفوة آل بيت الرسول ثم يضطرون الى الملق المنافق فيبتسمون ضاحكين ·· ليته لم يغش مجلس الخليفة قبل اليــوم حتى لا تقذى عينه بما يؤلم من المشاهد · وتصك مسامعه بما يصم من الشتائم·

انه ليتحدث فى همس الى معارفه ليكون رأيا عاما يستطيع أن يجابه به هذا البغى السافر · ولكن نفرا ممن خسروا ضمائرهم المتيقظة يستمعون الى ابن السكيت لا ليعاونوه على ما التزم من اصلاح ولا ليلوذوا بالصمت حين تعذر عليهم أن يرتفعوا الى مصاف الرجال ، بل لينقلوا الحديث الى المتوكل واشين متملقين ·· وتأتى الانباء للطاغية فيصمم على أن يخزى الشيخ فى مجلسه ليظهر باكيا يستنكر ويتزلف ويقسم الايمان المغلظة أنه لم يقل ولن يقول · هكذا تصور المتوكل على الله · فارسل بمن يدعو الرجل لساعته · فاقدم فى وقار المؤمن وهدوء الواثق ·· ثم فتح عينيه ليرى جلساء الطاغية يتغامزون متضاحكين والخليفة ينظر اليه فى اشمئزاز مترفع وقد جلس بين ولديه الاميرين ثم يسأل فى تعاظم :

يا يعقوب أترى الاميرين هذين ؟! فيقول فى هدوء ووقور : أراهمـــا يا أمير المؤمنين · فيهز الخليفة رأسه فى سخرية ويبرز أسنانه مستهزئا ثم يسأل : أيهما أحسن ؟ ولداى هذان أم الحسن والحسين أيها الشيخ المجنون ؟

فرفع يعقوب رأسه فى صلابة ·· واتجه بنظره الفاحص الى غريمه ثم قال بصوت مرتفع زاده جلال الايمان ووقار الشيب روعة وتأثيرا : ان قنبرا خادم الحسن والحسين أحسن منهما ومنك يا أمير المؤمنين ·

صدم المتوكل بمـــــا لم يكن يتوقع وكسا الخزى الاحمر وجـــوه جلسائه · فقام كالثور الهائج يرغى ويزبد ·· ثم أمــر غلمانه الاتراك فطرحوا الشـيخ أرضا ليدوسوه بالنعـال · ثم ليتركوه فى سـكرات النزع ·· فيحمل الى داره فاقد الادراك · ويقلب المحتضر الشهيد عينيه فى أهليه مودعا حتى اذا قضى وطرا ممايريد، جاء اليقين فلقىرضوان الله ·

ويشاء القدر الساخر أن يرى المتــوكل اجابة سؤاله صريحة دون كتمان حين يتآمر أحد هذين الاميرين المفضلين على حياته · فيلقى مصرعه ذليلا ضارعا بتدبير ولده تحت سيوف الخدم من الاتراك ·· هؤلاء الذين فرغوا من اعدام ابن السكيت ، ليتهيئوا بعد قليل لسحق الطاغية العنيد · فتأكله سيوف الاوشاب فى ليلة رهيبة دامية وتقذف جثته فى العراء · ويراها الناس فيشمتون بالصريع ويترحمون على يعقـــوب ثم يصيحون دهشين ·· ما أعجل الثأر · لقد انتصفت السماء ·

أبو جعفر البهلول يقهر الباطل

- ١ -

كلفت بالبحث فى تاريخ القضاء الاسلامى فشــاهدت صفحات لامعة تغرى بالتتبع والاستقصاء ووقفت على جهود محمودة لنخبة ممتــازة من رجال الحق وأنصار العدالة ٠٠ فتعجبت كيف لا تجمع هذه الدرر الوضيئة فى عقد نضيد يكون موضعا للمفاخرة والمباهاة ٠

ونحن لا نستغرب اذ نجد رجال القضاء فى عصور الاسلام الزاهية على جانب كبير من التحرر والدقة ٠ فقد تمكنت تعاليم الاسلام من نفوسهم فعرفوا الله حق معرفته ، وقرءوا الكتاب والحديث ٠ ودرسوا مســـائل القياس وقوانين النظر ٠ هذا الى ما يشرق فى قلب المؤمن النقى من نور يهديه الى الحق مهما تكاثف الظلام ٠

ومن هؤلاء الأئمة الأفذاذ : القاضى أبو جعفر احمــد بن اسحق بن البهلول التنوخى الانبارى ٠ وقد أجمع الذين كتبوا عنه على ســـــلامة استنباطه وصحة توجيهه ، وصدق تعليله ٠ وأنت تجدهم يصفونه – فى اسهاب زائد – بالبلاغة العالية اذا خطب أو ترسل ٠ كما ينقلون شذرات ثمينة من شــــعره تنبىء عن عاطفة وذوق ، ويجعلونه حجة فى التفسير والحديث والرواية والاسناد ٠ أما تبحره فى الفقه على مذاهب أهل القياس فقد بوأه منصة القضاء أكثر حياته التى زادت عن الثمانين ، واذا اجتمع لفاضل من الناس كل هذه المميزات الرفيعة ، فماذا ينقصه من الشمائل والصفات ؟

على أننا لا نكبر الرجل لعلمه وحده ٠ فكثير من الائمة فى القديم والحديث قــــد جاوزه فى التحصيل والدراية ، ولكننا ننظر بكثير من الاجلال والاكبار الى صرامته فى الحق دون مبالاة ، وهجومه على الباطل فى غير هوادة ، مهمـــا جر عليه ذلك من بلاء وعنت ، وناهيك بمن يفاجىء رؤساءه وصدور الدولة فى عهده بما لا يطيق المؤمن الورع صبرا عليه من ميل عن الحق ونكوص عن الجادة وولوع بالبهتان ٠

وهأنذا أقدم للقارىء الكريم موقفين متشابهين له فى نصرة الحق ٠ راجيا أن يكون أسوة حسنة ، ومثالا يحتذيه الناس ٠

نحن فى أوائل القرن الرابع الهجرى . وقد انحدرت الدولة العباسية من أوجها الشاهق الى وهدة سحيقة سقطت فيها هيبة الخلفاء والامراء وتنازع الوزراء وأعيان الدولة على الحكم شر تنازع وأبشعه . فكان هم كل وزير أن ينكل بمن سبقه فيخلق له الاتهامات الخطيرة التى تطيح بحياته ليامن على منصبه وجاهه ، فلا يجد المنافس العنيد . وقد كان حامد بن العباس وزير الخليفة المقتدر بالله يضيق ذرعا بسلفه الوزير أبى الحسن بن الفرات ، فحاك له من خياله الآثم أفظع تهمة يمكن أن توجه الى انسان فى ذلك الوقت ، حيث اختلى بالخليفة وأخبره أنه عثر على وثائق مهمة تثبت اتصال ابن الفرات ببعض العلويين المطالبين بالخلافة ، وأن الحزم يوجب اخذه بالشدة لتجرى الأمور فى وضعها الصحيح . وقد اهتم الخليفة المقتدر بالأمر . فعقد لفوره مجلسا برياسته لمحاكمة الوزير السابق . وقد أحضر فيه على بن عيسى وأحمد بن اسحق بن البهلول وأبا عمر محمد بن يوسف . وجىء بابن الفرات مخفورا الى المحاكمة حيث وقف غريمه الوزيرحامد بن العباس أمام الخليفةيبسط التهمة الخطيرة ويبين مغبتها الجريئة ثم اتجه الى الباب فجاة وصاح بأحد الحجاب : أدخل الجندى فى الحال .

فدخل جندى مديد القامة مكتمل الصحة . فاتجه حامد الى المقتدر وقال : لقد ضبطت هذا الجندى قادما من مدينة « أردبيل » ومعه كتب خاصة من ابن الفرات الى ابن أبى الساج يطلب فيها معاونة الداعى العلوى وتجهيزه للغدو الى بغداد ، حيث يستقبله ابن الفرات فيتعاونان معا على تقويض الخلافة العباسية وانهائها الى العلويين .

ثم التفت الوزير الى الجندى وقال له : قل ما سبق أن اعترفت به لدى . فقال الجندى : لقد ترددت بضع مرات على ابن الساج فى اردبيل أحمل الرسائل المتنوعة من ابن الفرات جاهلا عاقبتها الخطيرة ، فهو المسئول عنها وحده وما أنا غير حامل قدم .. يتكسب بالمسير والتجوال .

دهش الخليفة من هذا الاعتراف الجرىء وطار شرر الغضب من عينيه واخذ يصوب نظراته الحادة المحرقة الى ابن الفرات وهو يتململ فى مكانه ممتقع الوجه منقبض الاسارير .

ثم التفت المقتدر الى القاضى أبى عمر فسأله : ما عندك فى ذلك يا أبا عمر . فقال فى غير روية : لقد أتى ابن الفرات أمرا تخر له الجبال وللخليفة - أيده الله - أن ينزل به ما شاء من العقاب .

فتألق وجه الوزير بالبشر وظن أن المحاكمة ستنتهى على ما يريده

من البطش بصاحبه ، وجعل يرنح عطفه فى نشوة الظافر المنتصر ، ولكنه رأى الخليفة يتجه الى أحمد ابن اسحق فسأله : وما عندك فى ذلك يا أبا جعفر ؟ فيقول القاضى : لا بد من مناقشة الجندى ، فهل يأذن الخليفة بذلك ؟ فيجيبه الى طلبه ، ثم تدور هذه الأسئلة بين القاضى والجندى ٠

القاضى ـ تدعى أنك رسول ابن الفرات الى ابن ابى الساج فى أردبيل فهل رأيت أردبيل ؟

الجندى ـ نعم رأيتها ودخلتها عدة مرات ٠

القاضى ـ صف لى أردبيل ٠ أعليها سور أم لا ؟

فسكت الجندى ٠

قال القاضى ـ وما صفة باب الامارة الذى دخلت منه ٠ أحديد أم خشب ؟

فسكت الجندى أيضا ٠

فقال القاضى ـ ومن هو كاتب ابن أبى الساج الذى ذهبت اليه ؟٠ ما اسمه ؟ وما كنيته ؟ وما لقبه ؟

فبهت الجندى ولم يرد بشىء ٠

قال القاضى ـ وأين الكتب التى كانت معك من ابن أبى الساج لابن الفرات ٠٠

فقال الجندى ـ متلجلجا مضطربا ـ رميتها فى البحر حين وقعت فى أيدى الجنود فاتجه القاضى الى الخليفة وقال : يا أمير المؤمنين ان الله عز وجل يقول : يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) وقد صح عندى أن هذا الجندى جاهل متكسب مدسوس على ابن الفرات ٠ فقال على بن عيسى فى حماسة مشتعلة : قد قلت ذلك مرارا للوزير حامد بن العباس فلم يقبل قولى ٠ وأرى أن يهدد هذا الجندى بالضرب حتى يقر بالواقع الصريح . وأمر الخليفة باحضار من يضرب الجندى فى المجلس ٠ فما كاد السوط يلهب جسمه حتى صاح : كذبت وغدرت وضمنت لى الضمانات ٠ والله مارأيت أردبيل ولا حملت كتبا اليها طيلة الحياة ٠ وهنا أمر الخليفة بحبس الجندى وتعذيبه ٠ وكاد يغشى على الوزير المختلق من الهم والانكسار ٠ وانتصر الحق على الباطل بصراحة القاضى النزيه أبى جعفر أحمد بن اسحق البهلول ٠

كرت الاعوام تلو الاعوام . فتغير الخليفة المقتدر على وزيره حامد ابن العباس فأقاله من منصبه مخفورا . واسند الوزارة الى المتهم السابق أبى الحسن بن الفرات . وتلك الايام نداولها بين الناس .

ولقد سعى الوزير الجديد - لاول عهده بالرياسة - الى قتل غريمه السابق فشفى لواعج صدره ، واستراح من ناحيته . ثم دار بذهنه فيمن حوله من المقربين لدى الخليفة ، فرأى أن الوزير الاسبق على بن عيسى لا يزال ممتعا بالحياة ، وقد يتم صفاؤه مع الخليفة فى وقت من الاوقات فيعيده الى الحكم راميا بأبى الحسن الى غياهب السجن . ومن ثم أخذ الوزير يدبر لعلى المكيدة التى ترديه مع انه كان من أنصاره المتحمسين يوم حوكم فى التهمة الخطيرة . ولكن بالضيعة الوفاء .

رأى ابن الفرات - لانحطاط نفسه - أن يقتدى بسلفه السابق فى الاختلاق والوقيعة . فاتجه الى الخليفة المقتدر وأفهمه أن على بن عيسى على اتصال بالقرامطة اعداء الدولة ، وقد أرسل لهم فى مدة وزارته بعض المواد الحربية التى يحظر ارسالها الى العدو ، كما انه لا يعترف بتكفيرهم وخروجهم عن مبادىء الدين الاسلامى .

اهتم الخليفة بالوقيعة وأصدر أمره بمحاكمة على ، على أن يسمع باذنه ما يدور فى المحاكمة من وراء حجاب ، وقد تم الامر فى أسرع من البرق وشكلت لجنة المحاكمة برياسة الوزير . وحضر القاضيان السابقان فى المحكمة للمحاكمة الاولى : أبو عمر محمد بن يوسف وأبو جعفر أحمد ابن اسحق البهلول .

افتتح الرئيس الجلسة ، وسيق على بن عيسى الى المحاكمة وبدأ الوزير فأسرع باحضار رجل يدعى (ابن فليجة) . وأذن له فى الكلام فقال :

لقد ارسلنى على بن عيسى الى القرامطة مبتدئا ، فكاتبوه يلتمسون منه المساحى والطلق وعدة حوائج فأنفذها اليهم . ومعى خطابه الذى بعث به فى هذا الشأن ، ثم قرأ الخطاب فوجد خاليا من تكفيرهم وسبهم كما ينبغى أن يكون فى نظر ابن الفرات . وشاء الرئيس أن يلخص الاتهام فى نقط مركزة محدودة ، فصاح فى وجه على ، والمقتدر يسمع من وراء حجاب :

تقول ان القرامطة مسلمون والاجماع قد وقع على كفرهم !! فهم أهل ردة لا يصومون ولا يصلون . وتبعث لهم بالادوات الحربية وهم أعداء الخلافة ومبعث الفساد والشقاق !

قال علي : أردت بذلك المصلحة واعادتهم الى الطاعة ، دون أن تراق الدماء ٠

قال الرئيس : ويحك لقد أقررت بما لو اقر به امام لما وسع الناس طاعته ٠ فكيف يجوز لك التعاون مع اهل الفساد ؟ ثم التفت الى القاضي أبي عمر فقال له : ماعندك في أمر علي ؟ فأفحم ولم ينطق بحرف ٠ فاتجه الى أبي جعفر وسأله : ما عندك يا أحمد بن اسحق ؟٠

قال أحمد : لقد صح عندي أن عليا افتدى بكتابه الى القرامطة ثلاثة آلاف رجل من المسلمين كانوا مستعبدين فرجعوا الى أوطانهم أحرارا ٠ فاذا فعل انسان ذلك على سبيل المغالطة للعدو ، فلا لوم عليه بل يستحق أطيب الثناء ٠

تجهم وجه ابن الفرات ، وسأل القاضي : ما تقول فيما أقر به علي من اسلام القرامطة وهم أهل طغيان ؟

قال القاضي : انهم كاتبوه بحمد الله والصلاة على رسوله فلم يصح عنده كفرهم ٠ فهم لا ينازعون في الاسلام ، ولكن ينازعون في الامامة فقط ومن نازع فيها فهو غير كافر عند الأئمة الاعلام ٠

دهش الوزير من الرد المفحم ٠ ثم استأنف اسئلته فقال :

ــوما رأيك في الأدوات الحربية التي أرسلها الى الأعــداء ٠ أكان ينوي بذلك تقويتهم على الشغب والفساد ؟!

ــ هو لم يعترف بذلك فلا نؤاخذه به .

كيف تصدقه مع أن رســوله وثقته ابن فليجة قد أرســـل لهم المعدات ؟

ــ اذا قال رسوله ذلك فهو مدع وعليه البينة !

ــ كيف يكون مدعيـــا وهو ثقته الذي استأمنه على حمل الكتب والرسائل ؟

ــ ان عليا قد استوثق به في حمل الكتب ٠ فلا يقبـــل قوله في الادوات الحربية بحال من الاحوال ٠

ــ أأنت وكيله حتى تحتج عنه أم انت حاكم وقاض ؟

ــ لست وكيله ٠ ولكني أقول الحق كما قلته فيك يوم أراد حامد ابن عباس أن يتهمك أمام الخليفة بما هو أعظم من هذه التهمة ، فهل كنت وكيلك حين ذاك ؟ بهت الوزير وانكسر انكسارا طأطأ رأسه الى الغبراء وانتصر الحق مرة ثانية على يد أحمد بن اسحق ٠

وبعد فقد كان الورع والصلاح ديدن قضاة السلف الصالح فى صدر الاسلام فكانوا يتحرزون ويدققون مقدرين عظم المسئولية وفداحةالتبعة ومهما قارنت هؤلاء الاتقياء بأعلام القضاء الحديث فى الشرق والغرب ، فهم الراجحون الفائزون ، حيث كانوا يبتغون وجه الله وحده ، فأنزلهم منازل الصالحين وفازوا بأعظم الدرجات .

محمد بن بشير يرفض شهادة الحاكم

تعرض الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل لاول عهده بالاندلس لمحنة قاسية كادت تقضي على ملكه، لولا ثباته الجرىء، فقد سار مع البطش الى نهايته حتى قمع الفتنة وقضى على الثائرين · ومجمل ما كان من حديثه أن والده الراحل هشام بن عبد الرحمن كان فى أثناء حكمه ذا ورع وزهد فاستدنى الفقهاء وجعلهم أرباب مشورته ، وأداة تنفيذه · وصار لهؤلاء من الرياسة والأبهة ما جعلهم وزراء الدولة وحجابها وقضاتها · حتى كان لا يقضى أمرا ما دون استشارة فقيه · ولكن نشـــاة الحكم ومنحاه يختلفان اختلافا واضحا عن أبيه · اذ أولع منذ نشأته بكتب الفلسـفة والمنطق والادب · وأخذ يقرأ تواريخ الامم قراءة الدارس المحلل ، ويجمع من الكتب شرقا وغربا وعربيا وأعجميا ما ضاقت به الخزائن الملكية على سعتها الحافلة · وحين أفضى الامر اليه من بعد أبيه ، لم يشأ أن يسـير سيرته مع الفقهاء ، ورأى أن يقف بهم فى حدود المناصب الدينية من قضاء وامامة وتدريس · ونظر القوم فاذا سلطانهم يتضــاءل وينكمش ، واذا الحاكم الجديد يستمع الى الادباء والشعراء وقادة الحرب أكثر مما يستمع الى أصحاب الفقه والتشريع فأعلنوا الحرب الباردة عليه بادىء ذى بدء فأوحوا الى العامة بأنه ملحـــــد يدرس كتب الزندقة والزيغ ، وفاسق يصحب الخلعاء ، والمتهتكين ، ويدمن على الشراب والعربدة ، وانهــالت القوارص المحرجة على الرجل فلم تترك فى أديمه موضعا خاليا من تمزيق، ثم تحولت الحرب الباردة الى حرب ساخنة حين جمع الفقهاء جموعهم ، مع من كانوا أولياء نعمتهم من القادة والولاة ، وأعلنوا الثورة على الحكم وحاصروه ورموه بالكفر والمروق ، فاضطر اضطرارا الى البطش ، وأورثه هذا الموقف العدائى غلظة وجفاء ، فأمعن فى التنكيل وانقلب الى طاغيـة سفاك حتى استقام له الأمر وسلس القياد ·

ومع ما اشتهر به من القسوة المرهبة ، فقد وجـد من علماء عصره من يتصدى له بالحق رغبة فى تنفيذ العدالة ، لا بالباطل شهوة فى تقليد الرياسة وامتلاك السلطان · وهو العالم الحر النزيه والقاضى الكبير محمد ابن بشير القرطبى امام المسجد الجامع وقاضى الجماعة الفيور .

نشأ ابن بشير نشأة علمية كريمة فطاف ببلاد الاسلام شرقا ومغربا

حتى وصل الى المدينة وتلقى العلم مشافهة على امام دار الهجرة مالك بن أنس ، ثم عرج فى طريقه على مصر فساجل فقهاءها وعقد أواصر الصداقة بين قضاتها الأعلام .. وقد نفعه ذلك فى منصبه القضائى بالأندلس ، فكان يكتب اليهم بمصر مستفتيا فيما يشكل عليه من الأحكام ، فيجيئه الرد مشفوعا ببرهانه الثابت من السنة والكتاب . وفى هذا ما يكشف عن نفسية ابن بشير ، اذ لو شاء لكان أمره القضائى بالاندلس حاسما لا معقب عليه ، ولكنه تحرز العالم وتواضع الكبير .

كان ابن بشير فى قضائه مجددا ينظر الى الاشياء نظرات عميقة ذات بعد ونفاذ ، وقد أحدث من الأوضاع لعهده ماعد به سابقا غير لاحق ، اذ كان أول من جعل المسجد بمنأى عن مهاترة الخصوم فى مجالس القضاء ، واختصه بالعبادة والصلاة حين أمر بانتقال محكمته من المسجد الجامع الى سقيفة تتصل به دون ان يسمع المصلى بعض ما يدور بها من حجاج ولجاج ، وقد نظم مسائل الدعوى والشهادة فى القضاء تنظيما مريحا ، اذ جعل لكل يوم جلستين : جلسة صباحية تسمع فيها الدعوى وتسجل فى أوراق وجلسة بعد الظهيرة يجتمع بها الشهود ويناقشون على انفراد كيلا يعرفهم الجانى ، الا اذا دفعت الحاجة الى المواجهة والاعلان ، ومهما يكن من شيء فقد كان للعالم الكبير رأيه المفكر واستقلاله الكبير .

وقد اصطدم فى أول قضية عرضت عليه بالحكم أمير الاندلس . اذ أصدر أمره بادانته فى مسألة هامة ، وتوقع الناس أن يصدر الامر بعزله ، وبخاصة وهم يعرفون نفسية الحكم ونفورها من القضاء والفقهاء بعد أن ألبوا عليه الجمهور وبذلوا جهدهم البالغ فى التجريح والتشهير ، وكان القاضى جريئا حازما فى موقفه ، فجعل رضا الله نصب عينيه دون اكتراث بغضب انسان ، وكان الله عز وجل قد كافاه على نيته ، اذ ألهم الأمير الحكم أن يخضع ويستكين فتقبل الادانة بصدر رحب ونزل على رأى القاضى ، فرفع المظلمة عن المجنى عليه ، وقال لجلسائه وقد أخذوا يتملقونه اذ يتحرشون بابن بشير « لا يا قوم : لقد أحسن ابن بشير بنا فيما فعل على كره منا ، كان فى يدنا شيء فصححه لنا ، وصار حلالا طيبا للملك فى أعقابنا » (١) وبديهى أن الذى يتصدى للامير الحاكم،ويحكم عليه بالادانة يسهل عليه أن يتصدى لمن دونه من الوزراء والحجاب والولاة . فكان يصدر أحكامه الكثيرة بادانتهم ، فتمتلىء صدورهم حفيظة وغيظا دون أن يجدوا متنفسا لما يستشعرون . وقد حكم ذات مرة فى قضية هامة على الوزير ابن فطيس ، ولم يعرفه بالشهود ، فاغتاظ الوزير غيظا ناقما

---

(١) المدارك للقاضي عياض «مخطوط» .

وشكاه الى الحكم وجعل يستعديه عليه فاضطر الحكم أن يكتب الى القاضي فيقول :

« ان الوزير كره حكمك عليه بشهادة قوم لم تعرفه بهم ولا اعذرت اليه فيهم وأهل العلم يقولون ان ذلك له » .

وخطاب الحكم — على ايجازه — غاية الغايات فى الأدب والليـاقة فهو يعترض على اخفاء الشهود عن الوزير . ولا يقـول ان له ذلك الحق بل يسند القول الى أهل العلم وحدهم لا اليه .. ولن تجد ذوقا كهـذا الذوق من رئيس كبير !!

وقد جاء رد ابن بشير على رسالة الحكم مقنعا مريحا فهو يجزم بان ابن فطيس اذا عرف خصومه فى الشهادة لم يتحرج عن طلب اذاهم فى انفسهم وأموالهم واذ ذاك لايجرؤ أحد على الشهادة ضده وتضيع حقوق الناس .

هذا الفهم النفسى لمكايد الوزراء ودخائلهم يوقفك على الرصيد الضخم من البصيرة والاستشفاف لدى القاضي الكبير .. ويعلمك انه ليس فقيها فقط ، ولكنه باحث متعمق يستكنه السرائر ، ويضع لكل حالة علاجها المصيب . وقد رد شهادة الأمير الحكم نفسه فى قضـية هامة ولم يخش لومة لائم من انسان . وان قاضيا يجابه السلطان هذه المجابهة الخطيرة لقوى أمين ..

أما كيف تمت هذه المجابهة المحرجة ! فاليك موجزها الدقيق نقلا عن كتاب القضايا الكبرى فى الاسلام .

« كان للحكم عم يسمى سعيد الخير ، وكان له فى دولته مقام كبير ، فوكل عند قاضى الجماعة ابن بشير وكيلا يخاصم عنه بشىء اضطره اليه ، وكانت بيده وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا . ولم يكن فيهـا من الأحياء الا ابن أخيه الحكم ، وشاهد آخر مبرز . فشهد ذلك الشـاهد لسعيد الخير ، وضربت على وكينه الآجال ليأتى بشاهد ثان ، فلما جد به الخصام دخل سعيد الخير بالكتاب الى الحكم ، وأراد شهادته فى الوثيقة ، وقد كتبها فى حياة أبيه قبل أن يقوم بأمر الاندلس ، فعرفه مكان حاجته الى شهادته عند قاضيه خوفا من بطلان حقه . وكان الحكم يعظم عمه سعيد الخير . ويلتزم مبرته .

ولكنه خاف من ابن بشير أن يرد شهادته . فيكون لذلك أثر غير محمود فى ملكه فقال له : يا عم .. انا لسنا من أهل الشـهادات ، وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تجهله ، ونخشى أن توقفنا مع القاضي موقف

مخزاة كنا نفديه بملكنا ، فسر فى خصامك حيث صيرك الحق اليه،وعلينا خلف ما انتقصك ٠

فأبى سعيد الخير ذلك من الحكم ، وقال له : سبحان الله٠ما عسى أن يقول قاضيك فى شهادتك ؟ وأنت وليته ، وهو حسنة من حسناتك ، وقد لزمتك فى الديانة أن تشهد لى بما علمته . ولا تكتمنى ما أخذ الله عليك ٠

فقال له الحكم : بلى ان ذلك لمن حقك ، كما تقول ، ولكنك تدخل علينا به داخلة ، فان أعفيتنا منه فهو أحب الينا ، وان اضطررتنا لم يمكننا عقوقك ٠

فعزم سعيد الخير على الحكم فى أداء شهادته ، وألح عليه فيها الحاحا شديدا ، فأرسل الحكم عند ذلك الى فقيهين من فقهاء زمانه ، وخط شهادته فى قرطاس بيده ، وختم عليها بخاتمه ، ودفعها الى الفقيهين، وقال لهما : هذه شهادتى بخطى تحت ختمى ، فأدياها الى القاضى ٠

فذهب الفقيهان بهذه الشهادة الى ابن بشير ، فدخلا عليه بها فى مجلسه وقت قعوده للسماع من الشهود ، فأدياها اليه ، فقال لهما : قد سمعت منكما ، فقوما راشدين فى حفظ الله تعالى ٠

ثم جاء وكيل سعيد الخير بعد انصرافهما ، وتقدم الى ابن بشير مدلا واثقا ، لانه أتى اليه بشهادة ملك البلاد ، فقال له : أيها القاضى ، قد شهد عندك الامير أصلحه الله تعالى ، فما تقول ؟

فأخذ ابن بشير كتاب الشهادة ونظر فيه . ثم قال للوكيل : هذه شهادة لا تقبل عندى ، فجئنى بشاهد عدل ٠

فدهش الوكيل عند سماع ذلك من القاضى . ومضى الى سعيد الخير فأعلمه بما قال ، فركب سعيد الخير من فوره الى الحكم وقال له : ذهب سلطاننا وازيل بهاؤنا ، يجترىء هذا القاضى على رد شهادتك !! والله سبحانه قد استخلفك على عباده . وجعل الامر فى دمائهم وأموالهم اليك. وهذا ما يجب أن تحمله عليه ٠

وجعل سعيد الخير يغرى الحكم بالقاضى ويحرضه على الايقاع به . فقال الحكم له : وهل شككت انا فى هذا ياعم ؟ القاضى رجل صالح، والله لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فعل ما يجب عليه ويلزمه ، وسد دونه بابا كان يصعب عليه الدخول منه ، فأحسن الله تعالى جزاءه ٠

ولما سمع سعيد الخير ذلك من الحكم غضب وقال له : هذا حسبى منك ٠ فقال الحكم له : نعم قد قضيت الذى كان لك على . ولست والله

أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المســــلمين في قبض يد مثله ٠

وقد عوتب ابن بشير من بعض أصدقائه فيما أتاه من ذلك ، فقال لمن عاتبه : يا عاجز ، أما تعلم أنه لابد من الاعذار في الشهادات ، فمن كان يجترىء على الدفع في شهادة الامير لو قبلتها ؟ ولو لم اعذر لبخست المشهود عليه حقه ٠

ولن تحتاج صرامة ابن بشير وجرأته الى تعليق ٠ فقد رفض شهادة رئيس الدولة ، وولي الأمر متحرجا متحرزا ، وكان في وسعه أن يقبلها ـ كما يرى ذلك كثير من العلماء ، ولكنه ينظر الى الحد الأبعد حين يحجم المعترض عن دفع الشهادة هيبة وخشية ، فليحجم هو عن قبولها ، ليتحمل التبعة ويواجه السلطان ٠ هـــــذه هي البطولة ، ولا يلقاها الا ذو حظ عظيم (١) ٠

---

(١) ملحوظة . ذكر الاستاذ الجليل عبد المتعال الصعيدي في كتاب القضايا الكبرى في الاسلام ان حادثة محمد بن بشير كانت مع الحكم بن عبد الرحمن الناصر وذلك سهو واضح لان ابن بشير عاش في القرن الثاني من الهجرة أيام الحكم ابن هشام أما الحكم الثاني فقد كان في القرن الرابع فكيف يجتمعان ؟ .

المنذر بن سعيد يتحدى الناصر

يتألق اسم المنذر بن سعيد البلوطي بين الخطباء والقضاة الذين يتحدث التاريخ عن مواقفهم المشهودة . فقد كان الى فصاحة لسانه وسمو أدبه ودقة مؤلفاته ، ورقة أشعاره ، جريئا فى الحق لا يخشى فيه لومة لائم ، عادلا فى الحكم فلا يجنح الى هوى ، أو تميل به عاطفة ، زاهدا عزوفا عن المظاهر الخادعة هذا الى حسن السمعة وبعد الصيت .

وقد نشأ القاضى الخطيب بالاندلس ، وتتلمذ على جهابذتها من الفقهاء والادباء . ثم أغذ السير الى بلاد المشرق فلقى كثيرا من العلماء والرواة ونسخ أوراقا كثيرة مما قرأ وسمع . ورجع الى الاندلس حاملا من كل فن ثمارا طيبة مشتهاة ، فعرف له العلماء مكانه من الفقه والدين وأنزله الادباء بينهم منزلة عالية ، لما له من ذوق جيد فى الفهم ونقد بصير بالشعر ، ورواية حافلة للادب والتاريخ . وكانت الاندلس لعهد المنذر تزدان بسلطان عبد الرحمن الناصر ، وكان ملكا جريئا مقداما جمع الكلمة المتفرقة ، وأسكن الفتن الثائرة ، وهاجم الصليبية الزاحفة ونشر ألوية الحضارة والمساواة ، فتجمعت حوله القلوب ، وخافه أعداؤه ومعاصروه من الملوك ، فخفوا اليه بالهدايا النادرة يخطبون وده ، ويتملقون عطفه ، وقد جعل قرطبة عاصمة ملكه ، نظيرة بغداد وقريعتها علما وثقافة وحضارة ، فشاد بها القصور ، وأقام الجسور ، وأكثر من الحدائق والرياض حتى أخذت زينتها ، وارتدت أبهج الحلل والمطارف ، وتحدث الناس بجمالها الباهر وسحرها العجيب ، وقد بنى الزهراء وتأنق فى تجميلها تأنقا بارعا فحشد لها المهندسين ذوى الكفاية ، ورفع القباب العالية ، وأجرى الجداول الصافية ، وخلع عليها ألوانا عاطرة ناضرة تنبىء عن عظمة الملك وجلال السلطان .

وقد رجع المنذر الى الاندلس فى عهد الناصر ، ومهد له الحظ طريق السعادة فتألق نجمه فى مناسبة شهيرة ، اذ أن رسول ملك الروم قد خف لزيارة الخليفة حاملا أنفس الهدايا والتحف ، فأقيم لاستقباله احتفال فخم فى يوم مجموع له الناس ، وحضر الفقهاء والامراء وأعيان الدولة فى أجمل مظهر ، وأفخم لباس ثم تقدم الاديب الراوية الكبير ، أبو على القالى ، ليلقى كلمة الافتتاح فبهره الموقف وأخذته الرهبة ، وغشيت الناس سحابة من الخجل والاستحياء حين تلجلج لسانه وتقطعت كلماته ،

واحمر وجهه ، واذ ذاك نهض المنذر بن سعيد فصعد الى المنبر ووصل الكلام بحديث جيد ، فأبرز أفضال الناصر وتحدث عن مآثره ، وقرر افعاله ، وعدد نعم الله على المسلمين ، وتوعد أعداءهم بما أورث الرهبة والخشية فى القلوب ، فاتجهت الانظار الى الخطيب الساحر ، وعظمت مكانته فى عين الناصر فأسند اليه الخطابة فى المسجد الجامع ، ثم عينه قاضى الجماعة فى قرطبة ، فأبرز فى الاولى بلاغة وتأثيرا ، وأرسل من المواعظ البليغة ما رقق الافئدة ، وأقض المضاجع ، كما كان فى الثانية علما من أعلام الحق الذين ينهون عن المنكر ويأمرون بالمعروف وله فى ذلك مواقف ناصعة تتعطر بها كتب التاريخ ، وتزدان بها مجالس القضاء فى الاسلام .

أجل ، كان المنذر مثال النزاهة فى القضاء وله مع الناصر غرائب رائعة فقد ألزمه الحق مرات عدة ، وهو من هو فى سلطانه ودكتاتوريته . فقد كان الملوك جميعا لعهده ، شرقيين وغربيين منفردين بأحكامهم، لا معقب وراءهم ولا نقض لما يبرمون ، ومع ما لهم من السطوة العارمة ، والبطش القاهر ، فقد وقف المنذر أمام الناصر ليؤيد الحق وحده ، ويتخذ خشية الله سلاحا يفل دونه كل سلاح ، مهما رجعت عليه العواقب بما ينتظر أن تتمخض عنه ، وكان الناصر دقيق النظر صحيح البصر برجاله ، فهو يعلم المداهن المحابى ، والمتظاهر بالحق سمعة ورياء ، والمعتصم بالحق ابتغاء مرضاة ربه ، ومن ثم فقد كان ينزل على حكم المنذر ، واثقا من نزاهته وخلوص حكمه من الشوائب . واذا كان لنا أن نفخر بمن يجاهرون بالحق من القضاة دون رهبة أو خشية فاننا نعجب أيضا بمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه من الخلفاء والملوك !

كان للناصر حظية من نسائه ملكت قلبه ، فهام بها ، وكلف برغباتها ، فبنى لها قصرا جميلا ، ثم عن له أن يتوسع فى شرفاته ومقاصيره ، فأراد أن يشترى دارا مجاورة لبعض الايتام ، وعرض بعض المال لذلك ، فقال الوصى : انه لا ينفذ البيع الا باذن القاضى منذر بن سعيد ، اذ أن الأيتام فى حجره ورعايته ، فهو قاضى الجماعة فى المسلمين ، وأولى بالتصرف والانفاذ ، فبعث الخليفة الى القاضى يسأله انفاذ البيع، فقال البلوطى لرسول الخليفة : ان البيع على الايتام لا يصح الا لوجوه منها : الحاجة الملحة ، أو الضعف الشديد ، أو الرغبة فى مال من غبطة مرتجاة . وليس بالأيتام حاجة لنقد ، ولا بالدار ضعف فتزال ، وأما الغبطة فهذا مكانها ، فان أعطاهم أمير المؤمنين كثيرا ، أنفذت البيع والا فلا . وطار الرسول بالخبر الى الخليفة ، فاظهر زهدا فى شرائها ، وخاف القاضى أن يصمم الخليفة على الشراء ، فأمر بنقض الدار وبيع أنقاضها فبيعت وحدها بأكثر مما عرضه الخليفة فى الشراء . فعز ذلك على الناصر

واستدعى القاضى وناقشه فى هدم المنزل ، فقال له المنذر فى جراة حميدة لقد اخذت فى هدمها بقول الله عز وجل :

« اما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فاردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » ، ومقومك لم يقدرها بمال معقول وقد قبضت فى الانقاض وحدها أكثر منه ، وبقيت الارض للايتام. فتدبر الخليفة الأمر قليلا وادرك صدق النية لدى القاضى ، وعلم اخلاصه فى اتباع الحق فقال له : نحن أولى بالانقياد الى العدالة ، وجزاك الله خيرا يا قاضى الجماعة عن العدل والاسلام .

موقف كريم من قاض عادل ، وملك منصف . وبأمثال هذه المواقف الجريئة اعتز الاسلام وبلغ فى قرن واحد ما لم تبلغه الدولة الرومانية فى ثمانية قرون ، بل ان المنذر العظيم قد رصد نفسه ناقدا لاعمال الخليفة ، فهو لا يكتفى باقامة العدل فى القضاء وحده . بل يتتبع أعمال الناصر حسنها وسيئها فى رأيه ، فاذا لم يطمئن لعمل ما جاهر بمحاربته على رءوس الاشهاد ، واتخذ من منبر الجمعة مذياعا يصدع بالمعروف وينهى عن المنكر ، مهما كانت النتائج ، وحسبه أن يسكن ضميره القلق ، فلا يشعر بوخز يؤنبه على السكوت والاغضاء ، وقد كان الناصر كلفا بالعمارة والزخرفة ، فبنى الزهراء وأفرغ الجهد فى تزيينها وابداعها ، وأقام قصورها الشماء على أحسن طراز ، حتى شغله ذلك عن حضور الجمعة فى المسجد الجامع ثلاث مرات متعاقبات فأراد القاضى أن يلقى الموعظة الزاجرة وانتهز حضور الخليفة للصلاة فى جمعة حافلة وبدا خطبته بقول الله « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ثم أتبع ذلك بكلام قاس ، ينهى عن الاسراف والتبذير حتى بكى الخليفة وندم ثم قال لولى عهده ونجله الحكم لقد اسرف المنذر فى ترويعى وازعاجى ، والله لا أصلى خلفه الجمعة أبدا . فقال له ولى العهد : وما الذى يمنعك من عزله وايقافه . فرجع الناصر الى ايمانه ويقينه وقال : ويلك أمثل ابن سعيد فى ورعه وعلمه وفضله ، يعزل فى ارضاء نفس ناكبة عن الرشاد ، سالكة غير القصد ؟ هذا ما لا يكون ، وانى لأستحى من الله عز وجل ألا أجعل بينى وبينه شفيعا يوم القيامة مثل المنذر بن سعيد . هذا سمو بالغ نذكره بالفخر للناصر .

وقد زاده فى عيون المنصفين قدرا ونباهة ، ولو استمع الى ولى عهده وعزل المنذر بن سعيد عن الخطابة بالمسجد الجامع لاكتسب جرما آخر ، وسلقه الناس بألسنة حداد ، فذاع فى الدولة اسرافه وتماديه ،

فتذمر من تذمر وتآمر عليه من تآمر ٠٠ ولكنه تلافى ذلك كله ، وأرضى الله عز وجل فى واعظه ومرشده ، ثم تقبل النصيحة بهدوء واذعان ، بعد أن سكنت عنه سورة الغضب وكان يذكرها للمنذر بمحمدة واعجاب ٠

على أن الناصر كان يزن رجال دولته ويضع كلا فى منزله اللائق فهو يعرف الفقهاء ومنازعهم ، ويلم بنفسياتهم المتباينة حتى ليكاد ينطق بما فى ضمائرهم من حب وكراهية ، وقد بنى قصرا فخما ، وصفحه بالذهب والفضة ، وزخرف سقوفه بالالوان الذهبية البراقة ، ثم دعا اليه كبار رجاله وسألهم عنه فبالغوا فى الثناء على ابداعه وكماله ، وأسهبوا ما شاء لهم الملق فى تعداد مفاتنه ومباهجه ، فسر بتقريظهم سرورا طائرا ثم دخل المنذر بن سعيد واجما ساكنا ودموعه تنحدر على لحيته ، فسأله الخليفة عن حزنه فى غير وقت الحزن ، فأشار الى السقف الذهبى الوضىء وقال: يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ بك هذا المبلغ ، مع ما آتاك الله وفضلك به على العالمين ، حتى نزلت منازل الكافرين ٠

فانزعج الناصر وصاح : انظر ماذا تقول !! ويلك ! فقال المنذر ألا تتذكر قول الله عز وجل « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » فوجم الخليفة ونكس راسه معتبرا ثم قال : جزاك الله خيرا من ناصح أمين

ونهض الى الزخرف الذهبى فأزاله لساعته ، ثم أمر بطلاء القبة طلاء عاديا ، لا رونق به ولا تنميق !

بهذه المواقف الخالدة للمنذر بن سعيد تعطر تاريخه بالثناء والمديح ، ولقى فى حياته من الاكبار والاجلال ما لقيه بعد مماته من التعظيم والاطراء ٠ ولا ريب فقد كان مثلا رفيعا لعالم الاسلام فقها وفصاحة ونزاهة وورعا ، وقد ائتم به قضاة الدولة وفقهاؤها فدرسوا أحكامه وحفظوا خطبه ، أما العامة من الرعية فقد بهرهم زياده عن الحق ، ووقوفه بالمرصاد لكبراء الدولة وأمرائها فتجمعوا حوله ولاذوا به فى الشدائد ٠ وقد امتنع المطر مدة طويلة حتى جفت الانهار ، وغاضت الينابيع فتزاحم الملأ على القاضى مستجيرين ، وخرج بهم الى العراء فخطبهم خطبة مؤثرة ، ووعظهم وعظا خاشعا وبكى فأبكى الحاضرين ، ثم أذن الله فتجمعت السحب ، وانهمر الغيث انهمارا شديدا على الآكام ومنابت العشب ، ومسايل الاودية ، ورجع الى منزله قرير العين مبتهج الخاطر ، اذ أجاب الله دعوته ، وغمر البلاد بفيض زاخر ، تتقاذفه الانهار فأخصب جديبا ، وأحيا مواتا ، وأنقذ الأرواح ٠

وكان المنذر الى ذلك كله حاضر البديهة جيد النادرة ، ينظم الشعر الرقيق فى دقائق اللغة وضروبها من بلاغة وتصريف ، وقد أفادته رحلته الى الشرق معرفة بالناس ودراية بشئون البلدان ، ومشـافهة للأئمة ، ومناظرة للعلماء ، فنضج عقله وسلس بيانه ، وتحرر من ربقة الجمود ، فكان لا يتقيد فى الافتاء بمذهب مالك بن أنس ، بل قارن ووازن وحلل وعلل ، واكتسب سمعة فقهية رشحته للامامة والافتـاء ، وانك لتقرأ ما روى من خطبه وأشعاره فى معجم الأدباء لياقوت ، ونفح الطيب للمقريزى ومطمح الأنفس للفتح ، فتجد المعنى الرائع ، والاسلوب البليغ ، والذوق البصير ، وكل ذلك كثير .

العز بن عبد السلام سلطان العلماء

أجمع فقهاء عصره على أنه سلطان العلماء ، فقد كان الشـيخ من العلوم على اختلاف فروعها واتساع جوانبهـا بمنزلة رفيعة ، فقد كتب المؤلفات الكثيرة فى الفقه والاصول والتوحيد والتفسير والحديث والبلاغة. كما شارك فى التصوف مشاركة علمية وعملية ، فزهد وتنسك وكتب فى المواجد والمقامات ، والحق ان العز لم يكن سلطان العلماء وحدهم ، فقد كان سلطان الدولة بمن فيها من ملوك وأمراء !!

حتى أنه عرف بأنه القـائم بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى زمانه ، وكانت جرأته فى الحق مثار الدهشة والعجب ، فقد صمد لكثير من الطغاة معتزا بحقه ، ولم يمنعه فى ذلك ارهاب وتهديد وقد ألقى به فى غياهب السجن فما ازداد الا ثقة ومهابة ، بل ان ما كابده من المحن قد أورثه صلابة وجرأة فاستعذب مرارة الالم فى سبيل الله ، وظل على مبدئه يكافح الظلمة من الملوك والرؤساء حتى خشع الجميع لارادته وأصبح سيد الدولة فى مصر وسلطان الناس .

وقد نشأ هذاالفقيه بدمشق ، فدرس العلم على أئمتها الثقاة ، مثل فخر الدين بن عساكر ، وجمـال الدين الخراسانى ، وسـيف الدين الآمدى ، ثم ارتحل الى بغداد فشافه علماءها ، وجالس فقهاءها وعاد الى بلدته جم المعرفة واسع الدراية ، فانتشر له دوى علمى ، وبرع فى الفقه براعة فائقة حتى بلغ مرتبة الاجتهاد ، بشهادة الائمة من معـاصريه ، وعزل كثير من الفقهاء انفسهم عن الفتوى ــ كالحافظ المنذرى ــ مكتفين بما يصدر عنه من أحكام .

وقد ولى الخطابة فى دمشق ، فاتخذ من منبرها مذياعا يشـن به الحرب على الباطل ويدحض البدع والخرافات ، ويواجه الطغيـان من الرؤساء مواجهة تزلزل العروش ، وتقوض الدعائم ! حتى خيف جانبه ، وعظمت رهبته ، وان الذى يبحث مواقف الشيخ ليعجب بقوة الايمـان الخارقة التى سيطرت عليه ، فخلقت منه أسدا غضوبا يفر أمامه الحكام كالقطيع ! فما يزأر العز على منبره حتى يرتجف البـاطل ، ويتزعزع الضلال ، وتقوم الحرب العارمة بين الحق وخصومه ، ويخرج الشيخ من الحومة مؤزر النصر ، عالى الرأس ، وهانذا ألم ببعض مواقفه الناصعة

مراعيا ترتيبها الزمنى ما امكن ليكون بها عظة بالغة لمن كان له قلب أو ألقى السمع !

كان الملك الاشرف موسى بن العادل سلطان دمشق ، وله بها من النفوذ والسيطرة ما للملوك والرؤساء ، وكان للعز عنده منزلة رفيعة فهو يقدر ايمانه القوى ، ويشهد مواقفه الغر من أصحاب البدع والخرافات ، ولكن جماعة من مبتدعة الحنابلة قد أثاروا بدمشق فتنة فارغة فذهبوا يقولون : ان كلام الله بحروف وأصوات ٠

واندفعوا فى لجاجة حشوية لا طائل تحتها ، وتحزب العامة فريقين بازائهم ٠ وقد أفلحوا فى اقنـــاع السلطان الاشرف بآرائهم فاكتسبوا بمؤازرته قوة أثارت الشغب والتهريج ، فى وقت تتجمـــع به جيوش التتار لمحاربة المسلمين بدمشق ، فثـــار العز على هؤلاء المبتدعين ثورة عارمة ، وندد بهم فوق منبره تنديدا ماحقا ٠ كما أصدر فتوى يقرر فيها مذهب السلف والجماعة فيما أثاروه من الضجيج ! وقد أفلح هؤلاء فى اغضاب السلطان عليه ، فقامت بينه وبين الشيخ مناقشات ومساجلات حادة ، لم يسلس فيها العز قيادا أو يلن جانبا ، فصدر الامر بعزله من الخطابة ، وحرمانه من الفتوى ، واعتقاله ببيته ، ولكن الحق قد ظهر أخيرا على يده ، فاعتذر له السلطان ـ وكان فى مرضه الاخير ـ فاهتبل العز هذه الفرصة ، واتخذ من اجتماعه بالاشرف مجالا للنصيحة ، والامر بالمعروف وقال للسلطان :

كيف تعد الذخيرة وتجمع الجيوش لمحاربة الملك الكامل سلطان مصر وهو اخوك ، وجنوده مسلمون كجنودك ! فتضيع الدماء الطاهرة فى خلاف عائلى لا يرجع على الاســـلام بغير النكبة والخسران ! ان جيوش التتار تخوض بلاد المسلمين وأولى بكما أن تتعاونا على درء الخطر الزاحف فتنالا مثوبة الله واعجاب الجميع ! وما زال الشيخ المخلص بالرجل المريض حتى اقنعه فثنى العزم عن أخيه وأبطل المحـــارم والمناكر ، وكان موقف العز رائعا حين أمر له السلطان بألف دينار فردها قائلا : هذا اجتماع لله ، فلا أكدره بشىء من عرض الحياة !

رجع العز الى منبره يامر بالمعروف وينهى عن المنكر كعهده ، وقد آلى على نفسه أن يتعقب الفساد فى كل مرصد ، فلا يقطع لسانه عن باطل مهما جل ذووه ! وقد نزلت بدمشق نكبة فادحة حين ملكها الصـــالح اسماعيل ودب بينه وبين نجم الدين أيوب خلاف شديد ، فخاف على ملكه فصالح الفرنجة من الصليبيين على أن ينقذوه من ملك مصر ويسلم اليهم (صيدا) و (الشقيف) وغيرهما من بلاد المسلمين ، ولم يلبث الصليبيون أن دخلوا دمشق بمقتضى المعاهدة ، وأخذوا يبحثون عن السلاح يشترونه

ويعدون انفسهم به لمحاربة المسلمين ! فعظم ذلك على العز وأفتى بتحريم بيع السلاح ، وندد بالصالح اسماعيل فى مجالسه ودروسه ، ثم اعتلى المنبر ليعلن تبرمه وسخطه على السلطان الغادر دون أن يعبأ بارهاب يتهدده ، وانتشرت ثورة العز بالمدينة فانزعج لها الصالح انزعاجا شديدا ، وأصدر أمرا بعزله وحبسه ! فما زادت الثورة الا استفحالا ، فبدا للملك أن يطلقه على أن يغادر دمشق وخرج العز الى كنانة الله وقلوب الشاميين تتبعه ، وقد سار خلفه كثيرون ! وخاف السلطان ان ينتشر حديث خيانته بمصر ، اذ دخلها العز ، فارسل اليه من يصالحه على العودة الى منصبه على أن يستكين للسلطان ويقبل يده !

وما كاد العز يسمع كلام الرسول حتى صاح به : والله لا اقبل أن يقبل الصالح يدى ! فضلا على تقبيلى يديه ! يا بنى ارجع الى صاحبك فهو فى واد وأنا فى واد ٠

رحل الرجل العظيم الى مصر ، وقد سبقه اليها مجده وفقهه فاستقبله العلماء بالاجلال ، وكان المحدث العظيم الحافظ المنذرى صاحب الفتيا بها ، فامتنع عنها اجلالا لعلمه ٠ ورأى الشيخ كثيرا من محبة السلطان الصالح أيوب وعنايته به اذ ولاه الخطابة بجامع عمرو والقضاء بمصر والوجه القبلى ، والتفت القلوب حول الزائر الجديد ، فارتوت العقول من علمه ، وأشرقت القلوب بنوره ، وسار على سننه المعهود يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، واتخذ من منبره بالفسطاط مذياعا جديدا . يرسل به النذر ويقيم الحجج « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينه » . وطبيعى أن يعظم نفوذ الرجل وقد وثق بربه ، وبذل جهده الجاهد فى مرضاته ، فلم تأخذه رهبة فى محاربة بغى ، واستئصال فساد ، وقد مر ذات صباح على صديقه الصالح أيوب فى يوم عيد ، وقد أخذ السلطان زينته ، وخرج على قومه ، والجنود مصطفون بين يديه . والأمراء يقبلون الارض تحت أقدامه ، والرايات تخفق ، والخيول تصهل ، والدنيا تجتمع لتشهد ! فالتفت الشيخ الى السلطان فى أبهته الأخاذة ، وتيهه المتعاظم ، وصاح به : يا أيوب ٠٠ ما حجتك عند الله ، اذا قال لك الم أبوئك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟ فاندهش الملك وقال أهل حصل ذلك ؟ فقال الشيخ : نعم ، حانة فلان وحانة فلان ! فقال السلطان : هذا من زمان أبى وماصنعت شيئا ! فقال الشيخ : ما هذا أأنت من الذين يقولون انا وجدنا آباءنا على أمة ! فرسم السلطان أمرا باغلاق الحانات فورا ، ورجع الشيخ الى درسه ، فسأله تلميذه الباجى عن موقفه ، فقال : يابنى لقد رأيته فى تلك العظمة فأردت أن اهينه . لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، ولقد استحضرت هيبة الله تعالى اذ أخاطبه فصار السلطان عندى أقل من القط ٠

ولو كانت بنفسى لديه حاجة من حاجات الدنيا لرايته الدنيا كلها !
الله أكبر ... هذا هو العالم الحق الذى لا يعبأ بصداقة شخصية ، أو منفعة ذاتية بل يجعل الاسلام رائده ، يبحث عن تعاليمه ، ويتشدد فى أوامره ونواهيه ، فهو خير أمة أخرجت للناس . وقد ورث النبى فى علمه وهديه ومنبره ، وقام على رسالته يصون الارث الثمين ! وقد جاهد العز بسيفه كما جاهد بلسانه ، جاهد بسيفه حين هاجم الصليبيون دمياط ، وأرادوا اكتساح الاسلام فى أمنع دوله وأعز حصونه ، فنهض الشعب عن بكرة أبيه ، وامامه أمراؤه وجنوده وعلماؤه ، وخطب الشيخ خطبة مؤثرة ، أشعلت الحمية فى الصدور ، ودفعت النفوس الى الجهـــاد . ويروى المؤرخون ان الريح قد حاربت السفن المصرية بادىء ذى بدء ، فوقف العز ينادى بأعلى صوته : اللهم حول الريح عن عبـــادك المسلمين .. ويلوح بيده الى ناحية الصليبيين فتغير الوضع ، وانكفأت الريح الى سفن الفرنجة . وسواء أكان ذلك اجابة لدعوة الشيخ أم ظاهرة طبيعية لا شىء للكرامة فيها فان موقف العز كان مصدر يمن واقبال ، فتم به النصر وانطلقت الزغاريد .

ولم تكد مصر تستريح من نضال الصليبيين حتى تعرضت لقتال عدو آخر اشد بأسا وأعظم نكالا ، فقد اكتسح التتار بلاد الشام وولوا وجوههم نحو مصر المحروسة ، وقد ذاعت الروائع عن قوتهم الخارقة ووحشيتهم الكاسرة فملأت القلوب بالوجل والخوف ، واستأنف العز جهاده فدعا الى محاربة أعداء الاسلام ، واجتمع العلماء بالامراء والقواد والاعيان ، واخذوا يتشاورون فيما يصنعون ، فرأى الامراء أن تجمـــع الاموال من الرعية ليستعين بها الجيش فى نضاله الرهيب . ووافق الحاضرون على الاقتراح كامر مسلم به لا يقبل الاعتراض ولكن صيحة الشيخ تعلو بكلمة الحق . فيقول : لكم أن تفرضوا الضرائب على الرعية كما تريدون اذ لم يبق فى بيت المال شىء ، واذا باع المماليك جواهرهم النفيسة ، وادواتهم المذهبة ، وذخائرهم الثمينة ولم يبق لهم شىء غير ما للعـــامة فيتساوى الجميع ، وتفرض الضرائب على الرءوس ، وقد اذعن الحضور لأمر الشيخ ثم توجه الجيش المؤمن بقيادة الملك المظفر قطز فـكتب للاسلام نصرا خالدا ، بهزيمة التتار — لأول مرة — فى موقعه عين جالوت .

وقد تنكر الحظ للملك المظفر الظافر ، فاغتاله بعض اعدائه فى اثناء عودته مكللا بتاج الظفر والنجاح ، واراد الظاهر بيبرس ان يأخذ لنفسه البيعة بعد مؤامرة دبرها ، وكان له من الجبروت والبطش ماارهب وأفزع ! ولكن العز لم يعبأ به ، فامتنع عن مبايعته ، وقال له فى صراحة عالية جهيرة : ياركن الدين ، أنا اعرفك مملوك البندقدارى ولم يثبت لدى عتقك للآن ، فكيف أبايعك ! فاستحضر الظـــاهر شهودا يعترفون

بخروجه عن ملك سيده واسترداد حريته ، فبايعه الشيخ ، وبايع خلفه الجميع .

هذه الحادثة العجيبة لها فى تاريخ العز نظير أعجب وادهش : فقد ثبت لديه أن الامراء من المماليك لم يعتقوا ، وهم بذلك من حق بيت المال ، فاعلن للعامة ان حكم الرق لا يزال مصاحبا لهم . وأن تصرفاتهم من بيع وشراء وعقود ونكاح باطلة لا تنعقد ، وقد أفسدت هذه الفتوى الجريئة على الامراء كل عمل يقومون به ، فثارت ثائرتهم ، وكان بينهم نائب السلطنة فهاج وماج ، وتطاير الشرر من عينيه ، وأقسم ليصرعن العز بسيفه فقد تعاظمه أن يكشف الرجل عن حقيقته ! فاذا هو مملوك رقيق ! برغم ما يعوم فيه من سلطان وأبهه ، وكيف والأمراء من المماليك ملوك الارض وأصحاب الجاه الطائل والصيت البعيد !!

سار نائب السلطنة الى بيت الشيخ ممتطيا صهوة جواده ، وفى يده سيفه المسموم ، يبرق به لعاب المنية ، فطرق الباب طرقة شديدة ، وتقدم للعز فنظر اليه نظرة تتطاير منها ما يشتعل بقلبه من الغيظ والحقد ، ثم رفعه على الفقيه الساكن الهادىء فى مكانه كان الامر لايعنيه ، ولكن اليد الظالمة ترتجف ! والسيف المسموم يسقط الى الارض ، والامير الفارس يتخاذل ويرتعد ! كل ذلك والعز لم يبد حراكا ! افكانت رهبة الموقف قد زلزلت أعصاب الامير فتعاظمه ما هو مقبل عليه من شر مستطير ، أم أن عناية السماء قد جعلت من قوته ضعفا فانكفأ بعد سقوط سيفه يترضى الرجل ويستعطفه ، ثم ينزل على حكمه ، فيقول : يا سيدى ماذا تصنع بنا ، فيجيب فى ثبات : أنادى عليكم وأبيعكم ، واقبض الثمن غاليا لأدعه فى بيت المال ! وهذا ما كان فقد صاح المنادى آن ذاك بهذه الكلمة التى سطرت أنفس مواقف العزة : أمراء للبيع أمراء للبيع ! وقد قال له نجله عبد اللطيف : لقد خفت عليك خوفا شديدا من بأس الامير ، فصاح به أبوه : لا تقل ذلك يابنى فأبوك أهون من أن يقتل فى سبيل الله !

على أن الرجل كان صاحب ارادة وتنفيذ ـ فهو ينهى عن المنكر فاذا أبطأ ذوو الامر فى تنفيذ نهيه باشر التنفيذ بنفسه دون تهيب أو اكتراث ، فقد بلغه أن الامير فخر الدين عثمان قد جعل من سطح مسجد بمصر مكانا للزمر والطبل ، فبنى به ما كان يسمى (طبلخانة) فقام العز بنفسه وصحب جماعة من تلاميذه وهدم البناء ! وقد غضب الوزير والأمير لذلك فأسقط عدالتهما وعزل نفسه من القضاء دون أن يرجع للسلطان . ثم لزم داره يفسر ويؤلف حتى استعطفه صاحب الأمر ، فباشر التدريس بالمدرسة الصالحية . وواصل الشرح والتعليم ، وقد أخطأ ذات يوم فى

فتوى فامر مناديا يطوف بالمدينة ويقول : ما افتاه العز بكذا فليعلم انه خاطىء ! فيالعظمة الحق ويالجلال الايمان !!

لقد عاش الشيخ ثلاثة وثمانين عاما كانت كلهـــا بركة ويمنا على الاسلام ، وحين أدركته الوفاة عرض عليه الظاهر ـ فى احتضاره ـ أن يعين اولاده العلماء فى منصبه . فابى وقال : ليس فيهم من يصلح . ثم رشح من زملائه الأئمة من وثق بعلمه ودينه ، ارضاء للعـدالة . وحين خرجت جنازته سارت مصر كلها برجالها ونسائها واطفالها تشيعه وتبكى عليه ، وقد نظر الظاهر بيبرس الى الجمع المحتشد فقال : الآن قد استقر ملكى ، فلو أن هذا الشيخ أمر الناس بخلعى لبادروا الى امتثال أمره كما يشاء ، ومع ما عرف عن الرجل من قوة وجلال ، فقد كان يصحب الفقراء ويشارك أهل الزهد من المتصوفين ، وقد أورثته صوفيته شفافية حساسة فتعلق بالادب ، ونظم الشعر ! وما نعهد فقيها كتب فى أكثر علـوم الشريعة فى عصره غيره وقد مدحه الحافظ المنذرى ، وابن الحاجب ، وابن دقيق العيد ، والشاذلى وغيرهم من علماء زمانه بما فاق الوصف واربى على البيان .

وكنا نعهد الفقهاء لا يخوضون فى ابحاث الادب ولكن العز قد الف فى البلاغة والمجاز فكان يحلل الأبيات ويتحدث عن مناسباتها وقائليها ، غير مقتصر على القواعد الفنية للبلاغة كعـلم ذى تعاريف ومحترزات .. وقد جاءه رجل فقص عليه انه رآه ينشد فى المنام قول كثير عزة :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت

فسكت العز ثم قال : أعيش ثلاثا وثمانين سنة فان هذا الشعر لكثير ، وقد نظرت فلم أجد مناسبة بينى وبينـه ، فأنا سنى وهو شيعى ، وأنا طويل وهو قصير ، وانا سلمى وهو خزاعى ، وانا شامى وهو حجازى ، وهو شاعر وأنا فقيه ، فلم يبق الا السن فأنا أعيش كما عاش وقد كان الأمر كذلك ! .

وهذه القصة على صغرها تؤكد الـمام الرجل بتواريخ الأدباء ، كما تكشف عن مدى تعلق فقهاء الاسلام بتعبير الرؤيا من لدن ابن سيرين وسعيد بن المسيب الىأقرب عهودنا بمشايخ الأزهر فى القرن التاسع عشر ! وما فى ذلك شىء فهم يقتدون بنبى الله يوسف الصديق .

وبعد فقد كنا نقرأ قول القائل عن العلماء .

كانوا أجل من الملوك جلالة واعز سلطانا وافخم مظهرا

فنظن ذلك مبالغة شعرية ولكننا نقرأ سيرة العز بن عبد الســلام فنجده حقا أجل منالملوك ، وفى مواقفه السابقة أكبر برهان وآكد دليل .

محيى الدين النووى
يتحدى الظاهر بيبرس

ان مصباح الهداية الاسلامية ليتنقل من جيل الى جيل دون أن ينطفىء نوره على مدى الحياة ، فلم يكد العز بن عبد السلام ينتقل الى جوار ربه حتى نهج نهجه فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر عالم من طرازه يشاركه الفهم الصائب والعزة العالية ، والمجابهة الصريحة السافرة للطغيان ذلكم هو الامام الفقيه الورع محيى الدين النووى .

لقد عاش الرجل ردحا من حياته فى عصر الظاهر بيبرس . والظاهر كما نعلم بطل جرىء من ابطال التاريخ أسدى للعروبة والاسلام أيادى رائعة حين كافح الاستعمار الصليبى فى مواقع فاصلة . فقاد الجيوش وراء الجيوش ليرد الزحف الجائر المتربص بديار الاسلام وممالك العروبة ضاربا ضرباته الصاعقة الماحقة التى زلزلت هذا الكيان المحتشد المتربص ، فأخذ ينكص على أعقابه فى ذهول ، كما استطاع أن يسهم اسهاما ماجدا فى اندحار السيل التترى المتوحش حين تدفقت سيوله على المسلمين ، ولم يجد من يثبت أمامه غير الجحفل الصابر المؤمن فى عين جالوت بقيادة الملك قطز ، والبطل بيبرس . ومع هذه المواقف المشرفة فقد كان مسلكه السياسى لا يخلو من النقد الصارم العنيف ، اذ أن أنانيته القاهرة كانت تدفعه الى بعض ما يعد جريمة خائنة ، ويكفى أن نذكر تآمره الغادر على حياة الملك قطز ، فقد اغتاله بعد ان فرحت الدنيا بانتصاره الحاسم فى عين جالوت . ولم يكن الظاهر يحسب حساب مابعد خيانته اللئيمة غير العز بن عبد السلام ، فقد امتنع عن مبايعته حين رأى لون الدم فى يده ، وخاف الظاهر من تكتل الامة وراء العز ، فأخذ يصانع الامراء ويجامل القواد ، ليضمن الى جانبه ذوى القوة والسلاح . وقد واجهه ابن عبد السلام على رءوس الأشهاد بأنه عبد « للبند قدار » لم يثبت عتقه ، فأخذ يتذلل ويحضر شهودا يثبتون خروجه من ملك « البند قدار » وكان الشيخ المسن فى مرضه الأخير فلم يلبث أن لحق بربه ، وتنفس الظاهر الصعداء حين رأى جنازته تمر تحت القلعة ووراءها آلاف وآلاف ممن لايحصون ، حتى قال قولته

المشهورة « اليوم قد استقر امرى ، فان هذا الشيخ لو قال للناس : اخرجوا عليه لانتزع منى الملك »

قال الظاهر قولته تلك ، ولم يدر ان الايام تخبىء له عالما داعية جريئا من طراز العز ، آلى على نفسه ان يوفى بعهد الله على العلماء ان يقفوا مع الحق فى كل سبيل ، فحمل الراية ونزل الى الميدان .

كان الفقيه العلامة محيى الدين النووى ، ذا هيبة وجلال . وقد تنقل فى جميع العواصم الاسلامية لينهل من حياض الثقافة فى كل مركز من مراكزها النائية ، ورجع الى دمشق يجر وراءه فقها وعلما وورعا ، فقام بالتدريس واخذ فى التأليف المستوعب الجامع حتى طارت له شهرة واسعة فى فقه المذهب الشافعى ، ونحن نجد آراءه الدقيقة حتى فى غير كتبه يتناقلها المؤلفون لتكون اداة ترجيح بين راى وراى . وقد جرى العامة والخاصة من الفقهاء على اعتقاد الصلاح والولاية فيه ، حتى نرى شيخا جليلا كتقى الدين السبكى ينزل الى قاعة الحديث الأشرفية حيث يجلس النووى ويسير فيمرغ وجهه على بساطه ويقول لمن حوله :

عسى انى امس بحر وجهى مكانا مسه قدم النواوى

على اننا الآن نلمس نور قلبه فى كثير من مؤلفاته مثل رياض الصالحين ، والأذكار المنتخبة من كلام سيد الابرار ، وبستان العارفين فى التصوف ، اذ ان امثال هذه الكتب تفيض بضياء مشرق يستمد شعاعه من التقوى الخاشعة واليقين الصريح . اما دقته العلمية فتتضح فى كتب اخرى مثل التحرير فى الفقه ، وروضة الطالبين ، والمنهاج ، والمجدع وغيرها مما لا يزال اكثره مخطوطا الى اليوم . ولسنا الآن بصدد تحديد مكانه العلمى ، ولكننا نمهد بذلك الى الحديث عن شجاعته الادبية ، وايمانه الجرىء .

لقد اشتد الظاهر فى جمع الضرائب والمكوس من العامة ليستعين بها على الجهاد ، حتى وصل به الشطط الى ضروب من العنت والارهاق . ودار الشيخ بعينيه فراى كثيرا من التجار يجردون من اموالهم ، وتحيط بهم طائفة من غلاظ الجباة ، يغتصبون ويسلبون ، فاذا اعتذر احدهم بضيق اليد تعرض متجره للنهب وقد تتهاوى عليه السياط المحرقة دون رحمة واشفاق . فكتب الى السلطان يلفته الى ذلك ، ويوصيه بالعدالة والحق فيما ياخذ ويدع من الأموال ويشرح ما شهده بنفسه من مآس قاسية تنفطر لها الأكباد ، وقد اغلظ عليه القول اذ بالغ فى التهديد والوعيد ، وطار الخطاب الى الظاهر فراى ان العز بن عبد السلام قد رجع فى صورة عالم جديد هو محيى الدين النووى ،

فظن ان المدافع الثانى ليست له مكانة العز ومنزلته ، ورأى ان يواجهه بالشدة قبل أن تلتف حوله النفوس ، ويصير ذا صدى مسموع يقلق ويهيج ، فرد عليه بكتاب قارص يحمل الانكار والتوبيخ ، ويشير بالوعيد القاهر لكل من يتدخل فيما ليس يعنيه ، ثم هو لا يقتصر على الشيخ وأتباعه من العلماء بأن ينتقل الى الرعية فيرميها بالبخل والشغب ، ويعلن أن أمر الجباة نافذ الطاعة مهما غلوا فى المكوس وتهجموا بالسب والضرب اذ هم أعوان الدولة ورسلها لدى الناس . وقد ظن الملك الظاهر انه بذلك قد أطفأ الثائرة وكمم الأفواه . وصل الرد الى الامام المجاهد ، فقرأه متعجبا ثم دعاه داعى الحق الى أن ينقض الباطل ، ويحق الحق ، فلم تأخذه رهبة من حاكم جبار يعتصم بالقوة والجاه والسلطان ، ودعا من فوره بالدواة والقلم ليرد على كل كلمة جائرة تضمنها قول الحاكم الباطش ، وقد غمرته سكينة الايمان فما احس بخوف ، أو تهيب من دفاع ، وكان فيما قال رضى الله عنه وطيب ثراه :

« اما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ، وأى حيلة لضعفاء المسلمين فى الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه ، وأما أنا فى نفسى فلا يضيرنى التهديد ، ولا اكثر منه ، ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان ، فانى اعتقد ان ذلك واجب على وعلى غيرى ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى « فانما هذه الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار . وافوض امرى الى الله ان الله بصير بالعباد » ، وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا والا نخشى فى الله لومة لائم » .

وصل الرد الجرىء الى صاحب الامر فأثار فى نفسه ضروبا من الانفعالات الناقمة وجمع مستشاريه ليأخذ رايهم فيما يجب ان يقوم به ازاء هذا العالم العنيد ، وقد استمع الى كثير مما يتعارض ويتناقض بين داع الى العقاب ومشير بالتسامح والاغضاء وقد رأى الظاهر بعد ما سمع ان يجنح الى التهادن اذ انه لو سارع باعلان غضبه على الشيخ لجعله بطلا كبيرا على مرأى من العامة ، ولأصبح بمحنته هذه رمزا للدفاع المخلص ، ولواء يلتف حوله المعارضون وذوو الأغراض .

والواقع ان نصيحة الشيخ برغم قسوتها الصريحة قد فعلت فعلها فى نفس الحاكم ، فاضطر الى ان يجمع الجباة ويشير عليهم بالرفق والملاينة ، وان يحذرهم غضب العلماء من الخاصة والجمهور من العامة ، وان كان فى واقعة لا يستطيع ان يتخلص من حنق مكظوم أثاره الشيخ فى نفسه ، وانى له وهو انسان يجب ان يأمر فيطاع .

مرت هذه الحادثة ، لتعقبها حادثة اخرى اشد منها عنفا وايجاعا فقد تهيأ الظاهر الى بعض حروب اعدائه من خصوم الاسلام ، واراد أن يأخذ من أموال الرعية ما يستظهر به على العدو ، واستفتى العلماء فى ذلك . فافتوه بالجواز ، ولكن محيى الدين يمتنع عن الفتوى . ويعلن ذلك فى اصرار ، لو ملك الظاهر زمام عاطفته لتدبر وفكر فى وجهة نظر الشيخ ؛ ولكن تسرعه الغاضب أوحى له أن يعقد اجتماعا عاجلا يشهده الجمع الحاشد من الناس ويحضره النووى ، ليظهر فى ثوب المنفر عن الحرب الصاد عن مجالدة الكفار ! فيكون موقفه عند الجميع غير كريم . وتسقط مهابته لدى الناس .

وتم للملك ما اراد فاكتمل الحفل بأعيانه ووجوهه وذوى الراى فى البلاد .. وتقدم محيى الدين بقدم ثابتة ليسأله الظاهر فى عناد :

لماذا لا تجيز ان تجمع الأموال من المسلمين لننفقها فى الجهاد كما افتى زملاؤك من الفقهاء ؟

فرد الشيخ فى حزم اخاذ : كلنا يعلم ان لديك الف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية ، لكل جارية نصيب من الحلى ، فاذا انفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص ، وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى افتيتك بأخذ مال الرعية .

يا لله ، لقد دهش الحفل من صراحة الرد ، واشرقت الابتسامات فى الوجوه لتعلن اغتباطها بهذه المجابهة الرادعة ، وتطلع الملك الظاهر الى رفقائه ملتمسا من يسعف برد منقذ ، يحول دون الافحام والالجام فلم يجد غير الشيخ محيى الدين ينظر اليه فى كبرياء عالية تحتم على الناس أن ينزلوها منزلة الاكبار والاعجاب ، حين تجيز لهم أن يشمتوا بجبروت السلطان وقسوة جباته من الاجناد ، ولكن سطوة الرياسة لم تمنعه أن يصيح فى وجه الرجل : اخرج من بلدى - يعنى دمشق - اذ لا يجوز أن تساكننى فى مكان .

وتدفع النخوة زملاءه من الفقهاء ، فينسحبون من الحفل مجتمعين ، ويسود الهرج والمرج صفوف الناس ، فيخشى الحاكم سوء المقال ، ويتراجع قائلا :

ولماذا تخرج ! اذنت لك بالمقام . فيقول محيى الدين فى ثقة : ومن ادراك انى ساقبل المقام لديك لا بد من الرحيل !! ثم يتفرق الناس مبهورين !!

لو أن ذاكرة الظاهر كانت حادة نافذة ، لتذكر أن العز بن عبد السلام قد وقف من الملك قطز هذا الموقف حين هم بجمع المال من الرعية قبل موقعة عين جالوت اذ اعلن سلطان العلماء ان المال محرم على السلطان قبل أن يستنفد ما لدى مماليكه وجواريه من ذهب ولؤلؤ ... ولكن الملك الظاهر لم يتذكر ذلك الا حين مثل محيى الدين دوره فى شجاعة وايمان ، فاضطرب صاحب الامر ، وتخيل الموقف السالف وقد شهده بعينيه منذ أعوام !! ورأى أن العز الذى استراح بفقده قد عاد من جديد فى صورة محيى الدين ، فعض على شفتيه ودمدم يقول : ذرية بعضها من بعض ! ما اشبه الليلة بالبارحة فيما كان .

ابن دقيق العيد فقيه شجاع

آن لنا أن نتحدث الآن عن ابن دقيق العيد كما تحدثنا عن أستاذه الفذ عز الدين بن عبد السلام ، وعن زميله الشجاع محيى الدين النووى

والحق أن العصر المملوكى حافل بأئمة الدين وأعلام الشريعة ممن ملئوا المكتبة العربية بذخائرهم العلمية وآثارهم الاسلامية فوق ماضربوه من المثـــل الرائع من الذياد عن الحق والدعـــوة الى الطريقة المثلى فى الحياة . وان الدهشة لتأخذنى حين اجد كثيرا من المؤلفين يغمطون هذا العهد حقه فيزعمون انه عصر تخلف وانحطاط ، وربما كان ذلك صحيحا فى الانتاج الأدبى من شعر متكلف ونثر مصنوع ، أما الانتاج العلمى فلا نعلم عصرا حفل بالموسوعات الرائعة ، والمجلدات المتنوعة فى شتى ضروب الثقافة الاسلامية من فقه وتفسير وتاريخ وحديث وتراجم اعلام كهذا العصر المديد ! وقد يقال انه تأليف تقليدى فى اكثره ، ومجال الابتكار فيه ضئيل محدود ، ولكنه مع ذلك صان الثقافة العلمية ومنع فيضانها الزاخر من التبدد فى فلوات شاسعة اذ شق له المجرى الطبيعى وأقـام الشواطىء والجسور !! ولك ان تنظر الى كتب الطبقات والتراجم لترى لكل عالم من التآليف المتزاحمة ما يدفع الى الثناء !! وها هو ذا ابن دقيق العيد قد أسهم فى أكثر ضروب المعرفة تأليفا وتدريسا !! وقـد فاق أكثر زملائه بأسلوبه الأدبى واهتمامه بالروح البيانى مع تعمقــه الفقهى ، ورسوخه العلمى ، الى حد أنه تفوق فى دراســة مذهبين من مذاهب الفقه هما مذهبا مالك والشافعى ولم يشأ أن يقتصر على وجـه واحد بل قارن وعلل ورجح ! وهذا مثل واحد لنبوغه فى فرع واحــد من فروع العلوم فكيف اذا قرأت ديوان خطبه المنبرية وشاهدت من جزالة العبارة ، ونصاعة البيان ما يستغرب وجوده لعالم راسخ من علماء هذا العصر ، هذا الى هيامه بالشعر — لا على طريقة العلماء ممن يتكلفون البيت والبيتين والثلاثة بل على منهج الشعراء ممن يسعون للجـودة والافصاح ! وان عالما يجمع هذه المزايا لجليل رفيع ! أما جراته فى الحق فقد شاكلت جراة انداده من الأئمة الأفذاذ ! وقد تعددت مواقفه الباسلة فراعت وأدهشت ، وكان لها أثرها البارز فى الاصـلاح والتوجيه لأن ابن دقيق كان من المهابة والجـلال بحيث يسـتمع الملوك والأمراء الى

منطقه مكرهين او طائعين ، كما ان عزوفه عن المناصب المرموقة قد اضاف الى عظمته النفسية ومنزلته الاجتماعية ما اكمله وعظمه ، فان منصب قاضى القضاة مثلا يعتبر اخطر المناصب الدينية فى دولة تحكم بالكتاب والسنة ، ومع تهافت الكثيرين على تبوئه المشرف ، فقد اعتذر عنه الشيخ آبيا ، ولكن الالحاح المتزايد قد اضطره الى القبول بعد ان اشترط على ذوى الامر شروطا تحفظ للقضاء كلمته النافذة ، وسطوته الفالة دون تعويق .

تبوأ الامام الورع مكانه القضائى واصبحت له الهيمنة التامة على جميع قضاة الأقاليم ، فرأى بادراكه النافذ أن أمراء المماليك وخاصتهم يبـدلون وساطاتهم المتـوالية الملحة لدى القضـــاة لتأتى الاحكام كما يشتهون ، وعرف أن فى بعض ذوى النفـوس المترددة من يخضـع الى ارهاب امير او بطش مملوك فيوافقه على هواه فى مجلس القضـــاء ؛ فراى ان يحسم الموقف حسما لا لبس فيه ، فأرسل منشورا عاما من تأليفه وبتوقيعــه ، يدعو الجميع الى التزام نصوص الشرع ، واطراح ما يؤثر على تنفيذها من الوساطات والمحسوبيات ، وشدد فى النكير على من تضعف نفسه امام شهوات الحكام ، وخوف بعذاب الله ، وجـزاء الآخرة . وكان منشوره القضائى مع سمو هدفه ، وروائع توجيهه قطعة فنية ، تجمع الصياغة المشرقة والاقتباس البارع ، وتشهد لفن صاحبها بالابداع والتأثير ، ونحن ننقل منه ما يكشف عن هدفه الخلقى ، وفنه البيانى ليعطى الفكرة الصائبة عن ابن دقيق .. قال رحمه الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم يأيها الذين آمنوا قوا انفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، هذه المكاتبة وفقه الله لقبـول النصيحة ، وآتاه لما يقربه قصدا صالحا ودنيا صحيحة ، اصدرنا اليه بعد حمد الله الذى يعلم خائنة الاعين ، وما تخفى الصدور ويمهل حتى يلتمس الامهال بالاهمال على المغرور ، تذكرة بأمر ربك فان يوما عنـد ربك كألف سنة مما تعدون ، ويحـذره صفقة من باع الآخرة بالدنيـا فما احد سواه بمغبون ، عسى الله ان يرشده بهذا التذكار وينفعــه ، وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار ، فانى أخاف ان يتردى فيها فيجر من ولاه والعيـاذ بالله معــه ، والمقتضى لارسالها ما لمحنـاه من الغفلة المستحكمة على القـلوب ، ومن تقـاعد الهمم على ما يجب للرب على المربوب ولا سيما القضاة الذين يحملون عبء الأمانة على كواهل ضعيفة، وظهروا بصور كبار وهى نحيفة ، والله ان الامر لعظيم ، وان الخطب لجسيم ، ولا ارى مع ذلك امنا ولا قرارا ولا راحة ، فاتق الله الذى يراك حين تقـوم ، واقصر املك عليه فالمحـروم من امله غير مرحوم ،

وما انا وانتم ايها النفر الا كما قال حبيب العجمى وقد قال له قائل : ليتنا لم نخلق ، فقال « اذا وقعتم فاحتالوا » .

وقد شاء الله لهذا الناصح المحذر ان يكون موضع الاختبار لدى مسألة دقيقة يتطلب احقاق الحق بها مزيدا من الشجاعة الأدبية والعظمة النفسية ، وكان ابن دقيق العيد بازائها عند حسن ظن العلماء الأماثل به ، فجلى مبرزا مع العدل ، وقمع الباطل بانصافه فهان واستكان .

لقد كان الملك المنصور حسام الدين لاجين سلطان مصر سنة٧٩٧، وقد اعطى مملوكه الأمير منكو تمر سلطة واسعة اذ جعله نائبالسلطنة، وأخذ يرشحه للقيام بالأمر من بعده ، فأخذ الأمير ينكل بأعدائه ، ويبعث من الرهبة فى النفوس ، والفزع فى القلوب ما ملأ الصدور حفيظة عليه ، وضيقا به ، ومقتا له ، وكانت له رغبة فى المال تتكاثر فى نفسه بتكاثر مايجمع ويغصب ، ولا يعرف من القناعة ما يردعه عنالسلب والانتهاب، لانه فى عصر يصير به المالك للمال مستطيعا أن يبذل الكثير فى تأييد سلطانه ، وجميع الناس حوله ، وشراء الأمراء والقواد بالهدايا والذخائر ليكونوا فى موكبه ، ان تم الأمر له ، واصبح — بعد وفاة السلطان — سيد البلاد ، وكان ابن دقيق يعلم ذلك الشره البالغ فى نفسه ، ويأخذ السبيل على اطماعه ما استطاع ، وقد قدر الامير الماكر مكانة قاضى القضاة وخشى أن يصطدم به فيتعرض الى سخط العامة والخاصة تعرضا يهدم ما بيته من الاصطناع والتودد للناس ، الا أن حبه الأعمى للمال دفعه ذات مرة الى مواجهته راجيا ان يتساهل الشيخ بعض التساهل فيتيح للأمير أن يسلب ما يريد .

وخلاصة القصة : ان تاجرا كبيرا من التجار قد مات وترك وراءه ثروة هائلة ، فراى منكوتمر ان يدعى ان له اخا سماه وعناه ، وتقدم به الى القاضى ليأخذ الميراث ، فاذا تم ذلك فان الامير يستطيع ان يستولى عليه من الأخ المزعوم لقاء هبة محدودة ، ولكن مواجهة ابن دقيق بذلك ليست من السهّولة الهينة فى اعتقاد الامير ، فراى أنيحتال لذلك ، واختار أحد كبار خاصة الامير «كرت» واوفده الى قاضىالقضاة، فاستأذن مستخذيا وسلم ، فقام له القاضى نصف قومة ، ورد عليه السلام واجلسه ، فاخذ يتلطف فى الحديث متوسلا الى اثبات اخوة التاجر بشهادة الأمير منكوتمر نائب السلطنة والمرشح الأول لولاية عهد السلطان !! ولكن ابن دقيق — نضر الله وجهه — ينظر الى الامير « كرت » مستخفا ، وهو يقول :

وماذا ينبنى على شهادة منكوتمر ؟

فيحمر وجه الرسول ويقول : هو عندنا وعندكم عدل يامولاى !

فيصيح الشيخ : سبحان الله سبحان الله ثم ينشد :

يقولون هـذا عندنا غير جائز   ومن انتمو حتى يكون لكم عند

وكرر البيت ثلاث مرات ثم قال « والله متى لم تقم عندى بينة شرعية تثبت اخوة الرجل بغير شهادة منكوتمر فلن اثبتها بحال » .

وراجع الأمير كرت نفسه ، فثار عليه ضميره ، وصاح من فوره فى مجلس الشيخ : لا اله الا الله ، هذا هو الاسلام !!

مضت أيام وجاء لابن دقيق العيد من يخبره ان الامير منكوتمر يريد الاجتماع به ، فصاح فى وجهه : قل له ان طاعتك ليست واجبة على . ثم التفت الى من حوله من القضاة ، وقال : اشهدكم انى عزلت نفسى باسم الله ، قولوا له يول غيرى .. قال المقريزى فى السلوك : وعاد الشيخ الى داره واغلق بابه ، وبعث نقباءه فى مصر الى نواب القضاة يمنعهم من الحكم وتوثيق الأنكحة فقبلوا طائعين .

وقامت الضجة فى البلاد ، فقد عزل شيخ العلماء وقاضى القضاة نفسه من مباشرة أمور الناس وارسل الى نوابه فامتنعوا عن مجالس القضاة وعقد وثائق الزواج ، ووصلت الضجة الى الملك المنصور ، فهاج واضطرب وجعل يعنف منكوتمر على نزقه وتسرعه ، ثم ارسل الى ابن دقيق يستدعيه فاعتذر ، ولم ييأس السلطان فواصل السعى وارسل طوائف العلماء والوجهاء الى الشيخ يستعطفونه ويرجونه فى مقابلة السلطان ، وله أن يتمسك برايه كما يشاء ، وبعد لأى ذهب الامام الورع الأشم ، فقابل الملك المنصور ، فتلقاه بحفاوة وفرحة ، وعزم عليه أن يجلس معه على كرسى واحد ، فبسط الشيخ منديله وكان خرقة من الكتان ، فوق الحرير الموشى بالذهب على الكراسى ، ثم جلس فى اعتداد فجعل السلطان يتطلف اليه ويتذلل ، ويرجوه أن يعود الى منصبه القضائى ويحكم بما يشاء ! فقبل بعد جماح .

وانتهز السلطان فرصة قبوله فقال فى توسل : ياسيدى هذا ولدك منكوتمر فادع له الله !!

فنظر ابن دقيق الى منكوتمر وكان جالسا بين الحاضرين فى حال من الخجل تدعو الى الرثاء ، ثم قال منكوتمر لا يصلح ، لن يجىء منه شىء ثم قام لوجهه ، وترك منديله على الكرسى ، فتناول السلطان خرقته البالية واخذ يمسح بها وجهه متبركا ، ثم تزاحم عليها الامراء ، فجعل الملك المنصور يقطعها قطعا ويعطى لكل امير مزقة يسيرة يلتمس بها البركة والغفران .

قال الراوى : فمن راى تهافت السلطان على منديل الشيخ ، وتزاحم الأمراء على خرقته البالية رأى جلال العلم وعظمة العدل وروعة الايمان . . .

ابن تيمية يصدع بالحق

كان ابن تيمية بطلا فذا ، لا يحتلف فى بطولته أحد حتى خصومه فى الراى ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

ولم يكن هذا العالم المفضال يحارب فى ميدان واحد ، يقصر عليه همه وفكره وقوته ، ولكنه اتجه بنشاطه الحافل الى ميدانين يختلفان مذهبا واستعدادا ، ويجتمعان على نصرة الحق واعلاء كلمة الله ، وقد رجع منهما ظافرا مرفوع الراية ، تتحدث الاجيال عن بلائه ونضاله وتتساجل الأقلام فى تشريح آرائه ، واذا كان من الناس من لا يسير معه فى رايه فتلك طبيعة الاجتهاد الفكرى ، اذ يجذب الى نتائجه الدقيقة فريقا دون فريق ، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة .

اجل حارب الامام فى ميدان داخلى وفى ميدان خارجى . فكان ميدانه الداخلى حافلا بمن يخاصمونه ويشاكسونه من رجال التقليد ، وادعياء الصلاح والعلم وفيهم ذوو المكانة لدى السلطان فتحرشوا به ، وحرفوا كلمه عن موضعه ، وساقوه الى السجن الظالم والنفى القاهر فما استكان !

أى مجتمع كان المجتمع الاسلامى فى عهد ابن تيمية ، لقد كان يزخر بطوائف مختلفة من أصحاب الآراء والمذاهب يرجعون بها الى صميم الشريعة وهى بعيدة عن روح الاسلام ، ويسوقون العامة سوقا الى مبتدعات ضالة وانحرافات مريضة ، وقد نظر الامام فيما حوله فراعه ان يرى الخطأ فى الفهم ، والانحراف فى السلوك وانتزمت فى التطبيق والتكتل مع الباطل فصمم على الجهاد ، وتعرض بمعوله الهادم الى أطواد راسخة تستمد ثباتها من الغفلة والضيق والتعنت ، وما برح يضرب به هنا وهناك ، حتى آذن جهاده بالفلاح .

كان العالم الاسلامى يضطرب بآراءجدلية لطوائفتتشعب وتتناحر من شيعة ذات فرق ، ومن أشاعرة ومعتزلة وجهمية ومن حنابلة ومتصوفة ومن مبتدعة ومقلدة ، ولكل فريق علماؤه ورجاله ، ومعارك انكلام تحتدم فى غير طائل ، وحقائق الأشياء تتبدد فى صحراء مجهل . فهناك تناحر حول الله وماهيته وما ثبت له من الصفات وما يتصل به من الأشياء مثل الاستواء والنزول وخلق القرآن واثبات الصورة والعين

واليد والوجه . يرى قوم أن كل ذلك كنايات تؤول ، ويرى آخرون انها جوارح تجسم ، وتدور المعركة على ملأ من العامة فى المساجد ، فيهرفون بما لا يعرفون ، ويتعصب كل سامع لما يميل اليه ، ويطول اللجاج بعيدا عما يجب من صفاء العقيدة ووضوحها فتنصرف النفوس عن مجاهدة الأعداء من التتار ، وبقايا الصليبيين ، وينظر الامام فيجد أن المسألة فى حاجة الى حسم . فيصدع برأيه الصريح ناصرا رأى السلف بعيدا عن التأويل ويثبت لله الاستواء والنزول والعين واليد كما وصف بذلك نفسه ولكن بدون كيفية أو تمثيل أو تشبيه ، وانما له يد ووجه وعين لا نعلم صورها ويتهمه بعض الخصوم زورا بالتجسيم وتدور الرحى من جديد فلا يقتصر على جهاد الراى بل يلجأ المعارضون الى السلطان فى دمشق والقاهرة ثم يصدرون فتواهم بتجهيل الشيخ وتضليله ، ويلحون فى سجنه ! فيكون لهم ما يريدون !

وينظر ابن تيمية نظرة ثانية ، فيجد طوائف الصوفية قد تمكنت من العامة لا لتسير بها الى المقصد الصحيح ، بل لتفرض على دينها امورا دخيلة على الفكر الاسلامى والعقيدة المحمدية فى ذات الله ، فهناك من انصار الاتحاد ووحدة الوجود والحلول من افترضوا فى الله فروضا لم تأت بهذه الشريعة السمحة البيضاء ، وأخذوا يتحدثون عن فناء المخلوق فى الخالق أو اتحاد الخالق بالمخلوق على نحو فلسفى غامض يترك النفوس قلقة لا تعرف ما تستقر عليه فى ذات الله ، وقد جعلوا أقوال ابن عربى وابن سيرين نصوصا اسلامية صريحة فى هذا المضمار ، وجذبوا اليهم من الاشياع من لايميزون بين الطيب والخبيث ، حتى طم السيل ، واصبحت عقيدة التوحيد فى مهب الزعازع العاصفة ، وتطلبت من يثبت فى الميدان ليعيد الحق الى نصابه من ذوى الرأى النزيه البصير ، فكان ابن تيمية فارس الحومة ، اذ نازل خصومه بالرأى والحجة وعقد مجالس المناظرة والمناقشة حتى فزع من خطره ذوو الرياسة من المتصوفين واشياخ الطرق ، ووجدوا من بأس السلطان ما وجده سواهم من أعداء الشيخ ، فتحالفوا عليه ، وعقدوا المجالس لمحاكمته وافتوا بعودته الى السجن ، وكأنه مذنب شريد ! ومن العجائب ان يحقق لهم مرة ثانية ما يبتغون وثالثة الأثافى ان ينظر الشيخ فيجد قبور الأولياء تتخذ وسائل توبة لتحقيق الرغائب واجابة المطالب ، فلا ينقطع عنها آمل يلتمس العون من ضريح ساكن يرقد به انسان لا يملك فى دنيا الناس نفعا ولا ضرا ثم يظن به الحول والطول ما يظن بخالق الكون ، ورب الوجود ، فلا ينصرف المسلم الى ربه يرجو رحمته ، ويخشى عذابه بل ينصرف الى امل خائب يؤيده رجال لم يفهموا روح الاسلام على وجهه الصحيح ، ولا بد لهؤلاء من قامع يصيح فى آذانهم الغافلة لتسمع الرأى السديد ، ويوقظ عيونهم

النائمة لترى الوضع الرشيد ! وقد تحقق ذلك على يد ابن تيمية اذ هاجم أرباب التوسل بالأضرحة والمزارات مهاجمة ألبت عليه الشر فصابر وثابر وقبل المحنة الجديدة قبول اولى العزم من المجاهدين ...

على أن شجاعته الأدبية قد دفعته الى معارضة اقوال الأئمة من صفوة رؤساء المذاهب الزائغة فى امور كثيرة فقد نظر الشيخ الى ملابسات زمانه وظروف عصره وأوانه ثم أتى ببعض ما يخفف العبء ويوهن الأصر من الأحكام كفتواه بوقوع الطلاق ثلاثا مرة واحدة ، وكان موقفه فى ذلك وما شابهه خطيرا ، لأنه يعارض أقوالا صريحة أجمع عليها ابو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وغيرهم ممن مضى الزمن بتبجيلهم ورسوخ أقدامهم فى مضمار التشريع ، وكانت فرصة ثمينة اهتبلها الخصوم فأثاروا العجيج ورموه ظالمين بالفسق والمروق ...

هذه مواقف جريئة لا يتهيأ لها غير من ظفر بشجاعة نادرة ، وعقل صائب ، واستنباط غزير ، وقد كشف معدن الامام ، وابرزت عناصر رجولته النادرة ابرازا يخلب الأفهام .. كما كشفت عن خلق العفو والتسامح فى نفسه ، وهو خلق لا يتمكن الا من روح كبير .. فقد سعى أعداؤه وتألبوا عليه من كل حدب ، واغروا به العامة من الرعاع فاعتدوا عليه بالضرب والايذاء كما أجبروا الحاكمين على سجنه وتعذيبه ، ثم دالت الايام فتغير السلطان وجاء سلطان آخر يقدر الشيخ ، ويصدر عن رأيه ، فعرض عليه أن ينكل بخصومه المتشددين جزاء ما أنزلوه به من أهوال ، ولكن ابن تيمية يضرب المثل الرفيع فى التسامح حين يتلطف مع السلطان حتى يعفو عنهم غير ناقم ، وحتى يقول غريمه الاول قاضى المالكية بمصر ابن مخلوق قولته العجيبة « ما رأينا أعفى من ابن تيمية ، لم نبق ممكنا فى السعى عليه ، وحين قدر علينا بادر بالعفو »

هذا قليل من كثير لاقاه الشيخ فى ميدان الاصلاح الداخلى ، أما ميدانه الخارجى فقد حفل بالروائع فى مجالدة الباطل على شراسته ومناوأة الطغيان على جبروته ، واليك بعض ما كان !!

حين هزم المصريون جحافل التتار فى موقعة (عين جالوت) تقهقروا الى ديارهم خائبين منهزمين ، وكانوا يعضون على شفاههم غيظا من هؤلاء الذين أذاقوهم كئوس الهزيمة لأول مرة فى حياتهم المليئة بالفتك والتخريب ويتحرقون ليوم قريب يثأرون فيه لكرامتهم الجريحة وشرفهم الذبيح حتى كانت سنة ٦٩٩ فتأهب ملكهم فازان لاحتلال الأراضى الشامية تمهيدا للوثوب على بلاد النيل ، وجمع جنوده انزاحفة كالسيل لاتذر من شىء اتت عليه الا حصدته بالسلاح والنار ، فذعرت طوائف كثيرة وسلم فريق من امراء الشام بلادهم مرغمين فزعين ، وكان

السلطان التترى يتظاهر بالاسلام ، ويصحب معه المؤذن والقاضي والامام، ثم يسلط سيفه على الرقاب المسالمة فيقطعها فى غير ايمان ، وعلى الدماء البريئة فيريقها انهارا فى ساحات القتال ، وبذلك يفعل مالا يقول ، حتى وصل بجنوده الى (البتك) وفتحت دمشق ابوابها لقائه ، فعز على ابن تيمية ان يرى هذا الطاغية يتجبر فى الارض تحت ثياب الاسلام وهو اما كافر أو فاسق ، فلم تهدأ له نفس وصمم على لقائه متحديا جبروته ومعه فريق من أعيان الدمشقيين ، فيميل فازان الى المداهنة ويبدأ بتقديم الطعام الى الوفد فيأكلون هائبين ويمتنع الشيخ عن الطعام فيسأله السلطان :

لماذا لا تأكل ايها الشيخ . فيرد ابن تيمية فى عناد : كيف آكل من طعامكم وقد طهيتموه من اغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ولا ملك لأحد لكم فيه !!

فيضطرب فازان مأخوذا ويقول : ولكنى مسلم ايها الشيخ .

فيجيب ابن تيمية فى جراة : لقد سلطت ملك الكرج الصليبى على المسلمين ودفعت له السلاح والجند ليقاتل بنى الاسلام ! فأين كان دينك حين ذاك ؟؟ بهت الطاغية وبحث عن رد ينقذه فلم يجد غير أن يقول : انا مسلم ومعى مؤذن وقاض وامام !! ولكن ابن تيمية عاجله بقوله:

وماذا تفعل باسلامك وقد كان ابوك وجدك كافرين ولم يفعلا ما فعلت ، لقد عاهدا فوفيا ، وانت عاهدت فغدرت .

ان للحق لرهبة ترعد النفوس وتكبل الأيدى ، وقد غلبت هذه الرهبة المفزعة نفس فازان ، فنكس راسه ، واندفع يطلب من ابن تيمية الدعاء ، وكان لدى الامام سياسة وكياسة فرفع يده يقول : « اللهم ان كان عبدك هذا انما يقاتل لتكون كلمتك العليا ، وليكون الدين كله لك ، فانصره وايده وملكه البلاد والعباد ، وان قام رياء وسمعه طلبا للدنيا ولتكون كلمته هى العليا وليذل الاسلام واهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره » !! ثم خرج مرفوع الراس واصحابه يقولون له فى اشفاق : كدت ان تهلكنا وتهلك نفسك والله لا نصحبك بعد هذا .

لا اريد ان اتتبع هذه الحقبة من التاريخ فأسود ما كان من امر فازان ، ولكنى أقصر الحـــديث على جراة الشـــيخ وحدها فاذكر أنه رجع الى دمشق ليشجع الناس على القتال ، وليقود الفقهاء فى ميدان التدريب الحربى على أعمال الفروسية والجهاد ثم تمضى الأيام فيعود العدو من جديد فيهب ابن تيمية للنضال ويتقدم الصفوف طالبا للشهادة ويخرج السلطان والخليفة من هول الموقف ، ولكن ابن تيمية لا ينكص

بل يشعل الحماس حتى تنجلي المعركة باندحار الأبطال ؛ ويعرض عليه الملك الناصر بعض الهبات فيترفع عن ثمن ينتظر اضـــعافه حين يلقى الله .

هذا موقف حربى فى جبهة القتال يذكرنا بموقفه من اهل جبل كسروان بالشام حين استباحوا الحرمات وحالفوا الأعداء ، وتعرضوا الى الحجاج يقتلون ويذبحون ويسلبون ! فتوجه الشيخ الى قتالهم وكتب الى اطراف الشام ، ودعا نائب المملكة الى نصرته ، وافتى بأنهم اكفر من اليهود والنصارى ، ثم ثبت نلهول فى محن خطيرة حتى أراح المسلمين وأمن الطريق ، أما موقفه النادر من الملك الناصر فما لا تغفله ذاكرة التاريخ بحال . لقد سعى الواشون يرجفون لدى السلطان ان ابن تيمية محبوب وأنه يجاهد ويغزو ليسلب الحكم ، وكان فى الناصر تسرع واندفاع فبادر يدعو الشيخ ويسأله مغيظا : لماذا تجمع حولك الناس ؟

فيرد الشيخ : لنصرة الاسلام كما ترى ورأيت .

فيحدق السلطان فى وجهه ثم يصرخ : بل تتوق الى الملك وتسعى اليه فى وضح النهار .

فيبتسم ابن تيمية متعجبا ، ويقول : والله ان ملكك وملك المغول لا يساوى فلسا لدى !!

فينكسر السلطان ويبادر بالاعتذار .

لقد اعتصم الامام بالحق فعصمه من الطغاة !! وكان حقا علينـا نصر المؤمنين .

علماء الأزهر يرهبون المماليك والأتراك

كان علماء الازهر فى الفترة التى سبقت الثورة الفرنسية ، كما كانوا فيما تلاها من الأزمات زعماء الشعب والسنة دفاعه ، يرون ظلم المماليك الطاغى ، وتجبر الولاة العثمانيين فيتقدمون الجموع ، ويقودون الثورات ، ويرسلون كلمة الحق فى الاصلاح والعدل ، ولا تهدأ نفوسهم حتى يرتفع البغى ، وينتصر ما طالبوا به من انصاف ، واذ ذاك تستريح ضمائرهم المؤمنة ، فيهدءون ويقرون !

وقد قرات فى كتاب سيرة عمر مكرم للمؤرخ الاديب محمد فريد أبو حديد فصلا قيما يدور حول جهاد علماء الازهر ، وكفاحهم فى تحقيق العدالة وقمع الفسقة من الحكام ، وقد جعل مؤلف الكتاب عنوان موضوعه « جهاد الشعب فى القرن الثامن عشر » اعتقادا منه ان علماء الدين بالازهر هم السنة الشعب المعبرة ، وزعماء الأمة يصدرون عن رايها ، ويقودونها الى شواطىء الأمن حين تهب الزعازع الباغية ! وذلك ما كان فى عهد تنمر الطغاة من أمثال على بك الكبير ومحمد أبى الذهب حتى جاء مراد وابراهيم فبلغ السيل الزبى وجاوز الطغيان مداه .

وسنعرض هنا نماذج مختلفة من كفاح بعض هؤلاء السادة مستندين فى أكثر الغالب الى ما ذكره الاستاذ فريد مع زيادات هامة من تاريخ الجبرتى راينا الضرورة تلح فى سردها بايجاز ، لتتضح صور الجهاد على وجهها الصحيح !

وأول من نشير اليهم من هؤلاء الأعلام الشيخ على الصعيدى فقد كانذا مهابة توجب على على بك الكبير أن يقبل يده وكان الشيخ يمنع شرب الدخان ويفتى بتحريمه فصار على بك يحرص على أن يخفى أدوات التدخين اذا علم بمجيئه خشية من غضبه ، وكان الناس يلجئون اليه اذا مسهم الضر فيسجل شكاواهم فى صحيفة خاصة ، ويتحدث مع الحاكم فى كل شكوى على حدة ، ولا يلقى بالا لتضايقه البارز فى قطوب وجهه بل كان يصيح فى وجهه قائلا « لا تأسف فالدنيا فانية ، وسيسألنا الله عن تأخرنا فى نصحك ان لم نفعل » ثم يمسك بيده قائلا « انا خائف على هذه الكف من نار جهنم يوم الحساب » !

وقد لاحظ تلكؤا فى اجابة بعض مطالبه ، فخرج غاضبا ، ونفر

الناس وراءه ، وارتبك الأمير فحاول اللحاق به معتذرا ، فأصر الشيخ على الا يعود واخذ يتلو قول الله « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .

اما الشيخ الدردير فقد جابه الطغيان فى مواقف كثيرة ، ونترك للاستاذ محمد فريد ابو حديد أن يتحدث عن بعضها اذ يقول :

« بعد مضى سنة واحدة من حكم انطاغيتين ثارت مسألة فى خلاف على وقف ولم يكن المسألة فى ذاتها خطر خاص ، بل كان القصد منها نضالا على مبدأ قانونى وهو : هل يجوز للأمير القوى أن يدل بقوته ويثور على القانون ؟ أو لابد من الخضوع للقانون ، ولو كان خصمه ضعيفا لا سند له من سلطان الدولة ، وكانت الخصـومة بين رجل من أفراد الشعب وامير من كبار الأمراء من عصـابة الطغيان ، واعتصم الرجل الضعيف بالشريعة ، فلجأ الى القضاء ولوح الأمير القوى بالقوة والبطش وحكم الشرع للرجل الضعيف ، فأبى الأمير الاذعان لحق ، واصبح الأمر معلنا بين أن ينتصر القانون وبين أن تجتاح القوة كل حرمة وكل سياج ، فادرك العلماء أن واجبهم يناديهم (وهم ممثلو الشعب والطبقة المستنيرة منه) بالمحافظة على القانون والحق ، ولم يترددوا لحظة بل ذهبوا لنداء الواجب ، وتصدر فيهم زعيم اسمه الشـيخ الدردير رحمه الله وطيب ثراه ، فأرعد الأمير وابرق ، وارغى وأزبد ، ونهر وتوعد ، فوقف العلماء وثبتوا وارغوا وأزبدوا كذلك ، وقام الشعب من ورائهم يؤيدهم وكانت مظاهرة كبيرة فأغلق الناس حوانيتهم لينظروا مآل النضال بين الحق والقوة ، وأوشك الأمر أن يؤدى الى فوضى شاملة ، لولا أن جزع عقلاء الأمراء من ذلك الاضطراب ، واشفقوا من تلك الحال ، فاجتمعوا وتشاوروا وأرسلوا الى الأمير فلاموه على وقفته ، أمروه بالنزول على ما أراد القانون ، فأذعن وهو كاره بعد مشادة عنيفة ، ولم يرض العلماء أن يدعوا الأمر يفلت من أيديهم بغير حق مسجل يكتبونه للناس ، فطلبوا أن تكتب لهم وثيقة بالحق المكتسب ، وكتب لهم صلح رسمى به شروط على الأمراء ، وتعهد من الحكام بالتزام ما يقضى به القانون ، وما يحتمه العرف » .

هذا موقف من مواقف الشيخ الدردير ذكره الاستاذ فريد ، وله مواقف اخرى كثيرة نراها فى تاريخ الجبرتى ، ولعل اهمها موقفه من الامير يوسف الكبير حين منع الأوقاف الخيرية عن طلبة العلم من المغاربة، فرفعوا الشكوى الى القاضى فحكم لهم بما يستحقون ، وكبر على الأمير أن يذعن فكتب الشيخ الدردير يطالبه بالاذعان ، فطغى وبغى ورفض الطلب محتقرا من حمله ، فكان ما تحدث به الجبرتى حين قال :

« ووصل الخبر الى الشيخ الدردير وأهل الجامع ، فاجتمعوا فى صبحها ، وأبطلوا الدروس والآذان والصلوات وأقفلوا أبواب الجـامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة ، وطلع الصغار على المنـارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء » وكانت وقفة عصـبية رجع فيها الحق الى اصحابه على أيدى علماء الدين وفى مقدمتهم الاستاذ الدردير .

هـذا الغضب للحق قد رفع مكانة العلماء ، وجعلهم يواجهـون الظالمين بما لم يتوقعوه ، وقد تحرج النقاش فى بعض الحقوق بين مملوك ظالم وعالم غاضب فقال المملوك متوعدا « والله لأكسرن راسك » فصرخ فى وجهه العالم يقول متحديا « لعنك الله ولعن اليسرجى الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا » وهاجت الأئمة فتقهقر الأمير يعتذر ...

ولم تكن مكافحة العلماء للطغيان منحصرة فى نطاق المماليك وحدهم بل كانت تتعرض لكل ظلم يقع أيا كان مصدره ، بل انها نهاجم اوامر السلطان فى تركيا ، وتسفه راى الوالى حين يهم بتنفيذ ما امر به من اغتصاب ، وذلك ما يهدم الدعوى القائلة بأن رجال الدين فى مصر قد عاونوا الاستعمار التركى باغضائهم عما يقوم به من طغيان ، اذ ان حقيقة الأمر هى أن علماء الازهر كانوا يؤمنون بالخلافة الاسـلامية كفكرة ، ولكنهم يفرقون فرقا مستنيرا بين ما يجب أن تسير عليه الخلافة فى ظلال الاسلام من عدل ومساواة وبين ما انحدرت اليه على ايدى العثمانيين من شره وارهاب ! وقد هالهم ان تكون الخلافة العثمانية شعارا للظلم الصارخ باسم الدين فكانوا يقرءون ما يفد من المنشورات ويطالبـون بترجمتها الى اللغة العربية ثم يصدرون رايهم القاطع دون استخذاء .

لقد ارسل السلطان التركى سنة ١١٤٨ أمرا خاصا بالغاء بعض الأوقاف الخيرية ، مطالبا بوجوب نقلها الى دائرة الوالى ، ليضيفها بالتالى الىما يرسل الى الآستانة من الأموال ، وانعقد مجلس الديوان ، فقرا القاضى العثمانى منشور الخلافة ثم عقب عليه يقول : « امر السلطان لا يخالف وتجب طاعته بنص الشرع الشريف » ولكن الشيخ سليمان المنصورى ، احد اعضاء المجلس من علمـاء الازهر - يقف فيقول فى صراحة :

« ياشيخ الاسلام ، هذه المرتبات كانت من فعل نائب السلطان ، وفعل النائب كفعل السلطان ، وهذا شىء جرت به العادة فى مدة الملوك المتقدمين وتداوله الناس ورتبوه على خيرات ومساجد واسبلة فلا يجوز ابطال ذلك ، واذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك ، فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله ان يبطله ، وان امر ولى الأمر بابطاله

لا يسلم له ، ويخالف امره لان ذلك مخالفة للشرع ، ولا يسلم للامام فى فعل يخالف الشرع الكريم ! »

يقول الاستاذ محمد فريد ابو حديد ، تعليقا على هذه الحادثة الجريئة « وقد كانت وقفة الشيخ الجليل سببا فى عدول الحكومة عما كانت عازمة عليه ، ولا يسع الانسان الا الاعجاب بمثل هذه الدقة فى القول ، وهذا الاتزان فى المنطق ، وهذه الجراة فى الحق ، كما لا يسع من يسمع مثل هذا القول ان يدعى أن صوت مصر لم يكن قويا فى اندية الحكم ودواوينه ، بل ان مثل هذا القول ينم عن يقظة الشعب وانتباهه الى المحافظة على الحقوق وتقدير حكام مصر لراى هؤلاء الممثلين الأجلاء ، هذه واحدة للشيخ المنصورى تذكر معها ثانية للشيخ العروسى فى مواجهة قواد تركيا واعيان الدولة المستقلة من العثمانيين .

فقد اجتمع مجلس الديوان ليقر ما طلبه الوالى العثمانى من اقتراح الاستعانة بجنود من الترك يحاربون المماليك فى الصعيد ، فصاح الشيخ العروسى منكرا : ما يأخذه هؤلاء الأغراب من الأموال حين يقدمون، ندخره لأهل البلاد .

فكظم الباشا غيظه وقال : هذا رأى السلطان ، وشرع يقرأ فى منشور باللغة التركية ولكن العروسى لا يسكت بل يقول فى حدة :

اخبرونا عن حاصل الكلام ! فاننا لا نعرف التركية .

فيترجم المنشور ويفهم الشيخ أن الدولة التركية تريد ان تستنزف أموال المصريين مدعية أنها تتهيأ بها لحرب المماليك ، فيتهكم العروسى غير عابىء ويقول فى اعتداد :

« اننى لا أعبأ أن يكون الحاكم من العثمانيين او من المماليك انما أبحث عن مصالح الناس وأموال المسلمين ! ثم يلتفت الى الحاضرين من الأتراك ويصيح : اخرجوا اليهم للحرب ساعة فاما ان تغلبوا أو تغلبوا ، وسنستريح من الجميع !

ويغضى الوالى والقائد مطرقين !

وبعد أفليست هذه زعامة باسلة ؟ ثم الا تعد مع ذلك نموذجا رفيعا لورثة الانبياء ؟

عبد الرحمن الجبرتي يهاجم الطغاة !!

العاقبة للحق ، قضية صادقة ، تبرهن عليها حوادث الدهر ، وتنطق بها حقائق التاريخ وسيرة الجبرتي دليل ثابت يؤكدها أبلغ تأكيد ، فقد وقف الرجل حياته على الانصاف والعدالة فيما يسطر من حادثة أو يرى من عظمة، والمنصفون فى كل زمان هدف للعسف البالغ، والاضطهاد الاثيم ، ومن الطبيعى أن ينال الجبرتى ما يترصد زملاءه الصادقين من بغى وتهديد ، بل ان ماناله فى حياته وبعد مماته كان أعنف قسوة مما لحق سواه. فقد عاش الرجل فى ثلاثة عهود مختلفة ، تعاقبت مندثرة بما لا يقره من العنف والارهاب ! فرصد نفسه لمناوأة الباطل مناوأة سافرة صريحة ! عاش فى عهد المماليك الغاشم فرأى المسرح الرهيب الذى تمثل عليه أدوار السلب والنهب والاغتيال ، وشاهد الدسائس والمؤامرات تحاك فى غبش الظلام ، حتى اذا انبثق الصبح تفجرت عن مآس نكراء تتفتت لها الاكباد، وعاش الرجل فى عهد الثورة الفرنسية ، فآلمه أن يرى أعداء بلاده يلوثون مياه النيل بمآثمهم الفاضحة ، ويحاربون مبادىء الاسلام بما يريقون من خمر ، ويعطلون من شعائر ، وينتهكون من حرمات ! وكانت ناشئة الاثاثى أن يستبشر خيرا بتولية محمد على ، نزولا على رغبة الشعب ، حتى اذا ما تمكن سلطانه انقلب على شيعته ، ومثل الادوار السابعة التى قام بها سابقوه ، فاغتال وسلب وذبح وأرهب، والمؤرخ الحزين يرى الايام لا تتمخض الا عن كل منكر أثيم ، فلا يسعه الا أن يسجل ما تقع عليه عيناه ملتزما نزاهة المحايد ، وعدالة المنصف ، والحاكمون من الطغاة لا يقنعون بغير الثناء الكاذب والاطراء المموه ، فاذا نظروا الى صحيفة أعمالهم فى مرآة الجبرتى فانما يتفجرون غيظا ، ويثورون انتقاما وحفيظة ، وينصبون من مخالبهم الحاقدة ما يحيل الحياة فى عينى صاحب الحق ظلاما دامسا تتخلله العقارب والهوام ، وتكتنفه المخاطر والحتوف ، وهكذا كانت حياة الرجل ، ولا سيما فى عهدها الاخير ، فقد ترصدته مكايد محمد على حتى ختمت حياته ختما اليما سنتعرض له آخر هذا البحث ببعض التفصيل.

مات الجبرتى ، ولكن الارهاب لم يكف عن اضطهاده فى قبره ، فقد أضرمت النيران فى منزله ، لتاتى على كل ما سطره من مسودات تفزع وتخيف ، ثم امتد الارهاب الى كتابته فصودرت مخطوطاته ، ومنع تداولها وأوعز الى المنافقين من الكتاب بنقدها وتجريحها ، وقد يتحذلق ناقد مغرض

فيقول ان كتابة الجبرتي ليست تاريخا تربط معه الحوادث، وتنبىءالمقدمات عن النتائج ، وتسلط عليــه أضواء التشريح والتحليل ! كأن المفروض فى الجبرتى أن يتبع طريقة القرن العشرين فيمـا يخط من أحداث ! وقد فات هؤلاء أن الرجل قدم الوثائق ، وذكر الوقائع ، وأسلف من اليد على الناس ما اسلف ابن الأثير والمقريزى وابن اياس والسخاوى وعلينا نحن ان نأخذ من موســوعته الحـافلة ما نأخذه من موسوعات قرنائه المؤرخين ، دون أن نفرض على الرجل شروطا تأباها طبيعــة العصر وثقافة الجيــل ، ولولا أن بعض المكتبات الفرنسية قد احتفظت بنسخ من يوميات الجبرتى، ما استطعنا أن نقرأ تاريخه الحافل !! فقد ساعد قيام الثورة العرابية على نسخ صورة ، وطبعها كما كتبها المؤلف فى اربعة أجزاء متخمة مكتظة ، ذات حجم رائع، ورسم حافل ، ثم توالت الايام وكتاب الرجل لايلقى مايستحقه من التنويه! وسهام النقد تصوب الى أسلوبه المتواضع ، وما يشربه من عامية ركيكة ، وأساليب هابطة! ولو سلك الجبرتى مسلك أدباءعصره فى التزام المحسنات الزائفة واصطناع التشبيهات الملفقة ، ما أمكنه أن يقـدم صورة أمينة من واقع مصر ، كتلك التى قدمها فى سفره الجليل ، ولغرق القارىء فى كناية واستعارة ، وسجع وجناس وطباق ، دون أن يجد للمرآة الصادقة ، والصورة الصحيحة لأمد واسعمن تاريخنا العزيز، والآن فقط ، وبعد قيام الثورة الاخيرة أمكن لتاريخ الجبرتى أن يأخذ مكانه اللائق فنهض الكاتبون للحديث عنه منوهين ، واقتبس الناشرون من حوادثه الحالية صـحائف يقرؤها الناس مقدرين مغتبطين ، واندفع المخلصون الى كتابة حياة الرجل كتابة منصفة ، ترفع عنه أوضارا كثيرة مما صحبه من عنت الدهر وزيف الأيام وهكذا يقدر الجبرتى وتاريخه بعد ليل دامس ، بطىء الكواكب ، حالك الجنبات ، بل هكذا يظهر الحق من محنته الغاشية ، ناصع الوجه ، مؤتلق الجبين ، فترددت الأرجاف بهواتف حارة جائشة تجأر فى قـــوة وايمان بأن العاقبة للمتقين !

أما كيف نشأ الرجل ؟ وكيف اندفع الى كتــابة تاريخه ؟ فذلك ما سنعرج عليه فى هذا الحديث ! كان حسن الجبرتى والد عبد الرحمن من كبار علماء الأزهر الذين ألموا بدراسة علوم اللغة والتشريع ، ولو أنه قصر اطلاعه على ما يتناقله زملاؤه فى دروسهم الازهرية من نحو وفقه وبلاغة وتفسير ، لكان عالما كمئات العلماء من نظرائه ، ولكنه اتجه الى دراسة الرياضــة والمسائل الفلــكية ، فانتشرت له براعة خاصــة تسمه بسمات تختلف عن الوان زملائه ومعارضـيه ، كما تدفع فريقا من التــلاميذ الى التشبث بأســتاذيته والتعلق بدروســه ، وقد ساعده على اجادة مســائل الحساب والهندسة ما اندفع اليه من حياة عملية ، هى الى التجارة والمضاربة أقرب منهـا الى المذاكرة والتحصيل ، فقـد ورث الاب عن أهله وزوجاته

ضياعا ومنازل ومتاجر وخالط سيلا مزدحما من العملاء ، ممن يساهمون فى تنمية ثروته وانتاج محصولاته ، فكان اتساع أفقه الحيوى باعثا على تضلعه فى علوم الحياة وفنونها المختلفة ، وقد اتجه الى الموازين والمكاييل فأخذ يضبط مقاييسها ، ويعيد السلامة الى مختلها ، ولم تدفعه الى ذلك رغبة فى الثراء وطمع فى الاكتساب ، بل ان الموهبة الكامنة فى أطوائه كانت تتطلب متنفسا فسيحا ، فى ضبط المختل ، واقامة المنحرف ، كما يندفع الرسام الى تصوير مناظره ، وتنميق لوحاته ، دون أن يعرضها فى سوق عام للربح والاتجار ، بل ليشبع رغبة ملحة تتطلب المنافذ المتعددة للاشباع وقد ساعده ثراؤه الطائل على مزاولة موهبته فى فرحة واغتباط ، كما جذب اليه هذا اليسر الوارف فريقا كبيرا من زملائه ومريديه فكانوا يغشون منازله ، ويلمون بحلقاته تارة لاستماع الدرس ومناقلة الحديث، وطورا للراحة والمطعم فى مأى فسيح ، ومكان كريم ، وذوو الثراء فى كل موطن قبلة الانظار ومراد الآمال .

وفى هذا البيت الزاخر بالنعيم والرفه ، الحافل بالعلماء والفقهاء ولد عبد الرحمن ونما عوده الاخضر نموا هادئا مسعدا ، يجد حظه من الرى الدائم ، والتربة الخصبة ، ذات الهواء البليل ، وقد استقبل الوالد طفله استقبالا فاترا حزينا ، اذ أن الرجل قد تعود أن يستقبل الاطفال من قبله ليعيشوا فى كنفه عاما أو عامين ثم يعجلهم الموت عن استكمال حظهم فى الحياة ، وقد دفن الاب الثاكل خمسة وثلاثين مولودا قبل عبد الرحمن من زوجاته وسراريه ، دون أن تسعده الايام بوليد يخطئه الموت ، وكان يعلل ذلك بأن نطفه تنحدر من صلبه غير متكاملة فلا تلبث أن تعجل بالرحيل، واذ جاء عبد الرحمن توقع أبوه نهايته القريبة ، فلم يشأ أن يفرح بمصباح سينطفىء شعاعه بعد قليل ، أضف الى ذلك أن الوليد الجديد من احدى سراريه لا زوجاته ، وهو بهذا أنأى عن القلب والعين من ولد الحبيبة! ولكن القدر أخلف الرجل ، فعمر وليده السنوات المتتابعة دون أن يتطرق الى عوده الغض ذبول وجفاف ، ونشأ منشأ غيره من اولاد العلماء يحفظ القرآن والمتون ، ويلم بالمدارس والكتاتيب ، حتى أسلمته الطفولة الى اليفاع فكان له فى حلقات الازهر وفى دروس والده وفى مذاكرة من يغشون منزله من العلماء ينبوع متدفق يفيض عليه بالعلم والادب والسداد وكان الغلام الناشىء ذا استعداد طيب للبحث والافادة ، فأثمر ذلك كله فى عقله أخصب الثمرات !!

تثقف عبد الرحمن بثقافة عصره ، وانتفع بأحاديث والده عن زملائه من العلماء وأصدقائه من أمراء المماليك ، ووجوه الدولة وأعيانها ، فعرف كثيرا عن أحوال مصر ، وأمكنه أن يلم بسياسة رؤسائها الماما يختزن فى ذاكرته ثم يتسرب الى اطوائه ، حتى طوى الموت اباه فترك له ثراء طائلا

من متاجر وأطيان وعمارات وأورثه صداقات رفيعة تمتالى وجوه العلماء وصفوة الرؤساء ، وقد اضطر الشاب أن يتفقد أملاكه بنفسه ، فرحل عن القاهرة الى طنطا وكفر الزيات والمنصورة ودمياط والاسكندرية ورشيد ، وفى كل بلدة يحلها يجد من يحادثه من الاعيان والعلماء ، كما يخبر طبقات الشعب المختلفة من حكام وفلاحين وصناع وعمال ، فعرف بلاده معرفة شخصية ، وسبر الاغوار القاصية فى الاعماق والسرائر ، ورجع الى القاهرة وقد صلب عوده ، وغزرت تجارته ، واتسع نطاقه فى الحياة !

واصل الشاب دراسته بالازهر ، حتى أصبح عالما مرموقا يستمع اليه التلاميذ ويقصده العلماء ليعيدوا سيرتهم مع أبيه ، وقد فرح العالم الثرى بمنزلته الكريمة ، وأفسح بيته لارباب العلم ، وأعلام الازهريين ، ووثق صلاته بمن يلمس فيهم الوجاهة والرفقة من علية الناس ، كما أكب على خزانة والده ، كى يستتم علوم الفلك والهندسة والحساب ، ووقر فى ذهنه أن يعيد سيرة الوالد ، فيتبعه فى طريق حياته ذراعا خلف ذراع !

ولكن رجلا كبيرا يفد الى مصر من اليمن فيرسم لعبد الرحمن آفاقا جديدة يجذبه الى التطلع اليها فى شوق واندفاع ، فيقبل الازهرى الشاب على أستاذه وقد شاهد فيه طرازا خاصا لم يعهده ، رآه يختلف اختلافا بارزا عن علماء الازهر فى التفكير والتأليف والملبس والاتجاه ، وقد أحرز قبول العقلاء وارتياحهم ، فتوافد الطلاب على مجلسه وسعى الامراء الى منزله ، وقبل الساعون بين يديه الارض تقبيلا لايكون لغير الخلفاء والامراء! ذلك هو العلامة الكبير السيد أبو الفيض المرتضى الزبيدى البحاثة اللغوى الجهير !

لقد كان تأليف الازهريين لعهد الجبرتى دائرا فى شرح المتون وكتابة الحواشى ، ووضع التقارير ، فالمتن أصل يتفرع عليه ما يليه من حاشية وهامش ، لا يختلف ذلك فى علم من العلوم ، فانت تراه فى الفقه والنحو والاصول والمنطق والتوحيد ، وانت تسمعه كذلك فى حلقات الدروس اذ يدور الجدل حول المتن ، كنص مقدس ، تلتمس التأويلات الشاسعة الى ما يتطرق اليه من وهن فى لفظ ، أو خطأ فى تقرير قاعدة ، ثم تدور الحرب الجدلية حول هذه التأويلات ، من معارض يدحضها بالحجة الى مؤيد يدعمها بنص آخر ، أو تخريج محتمل !

على ذلك سارت حركة التأليف فى الازهر ، وفى غير ذلك سار العلامة الزبيدى فى دروسه بالمساجد ، وتأليفه فى الكتب ، وقد كان يدرس فقه اللغة ، وفصيح ثعلب ، وأدب الكاتب ، دون أن يلحقها بحواش وشروح ، كما أخرج معجمه الفذ (تاج العروس) نمطا فريدا فى عصره وموطنه ، وأدب مأدبة حافلة للعلماء حين أتم تأليفه قوبل بالثناء والاطراء !

أراد هذا العالم البحاثة أن يترجم لأعلام القرن الثامن عشر من العلماء والأمراء والوجهاء، فيصل ما انقطع مما قام به صاحب الضوء اللامع وصاحب خلاصة الأثر وصاحب سلك الدرر، وغيرهم من أصحاب المراجع التاريخية ذات الدوى البعيد، ولم تكن للزبيدى ـ كضيف نازح ـ خبرة واعية برجال مصر، وأعلامها فى القرن الذى ينتوى الحديث عنه، فتفرس خطاءه حتى اهتدى الى عبد الرحمن الجبرتى، فكاشفه بدخيلة سره، وأمره أن يشمر معه فى البحث عن آثار الماضين فيزور أصدقاء والده، مسجلا أحاديثهم عن الرجال، كما يدلف الى الصكوك والحجج فى مسجلات القضاء، ويطابع النقوش فوق القبور وعلى المساجد والآثار، ثم يتصل بأقارب المتفوقين من ذوى الجاه والنفوذ، فيجمع من حياتهم ما تفرق، ويضم من تاريخهم ما تناثر، واذ ذاك يمكنه أن يقدم لاستاذه مددا حافلا من المعلومات، والانباء!

وقد كان حديث الرجل غريبا عن عبد الرحمن فى بدئه فلما ضرب له المثل، وناقش معه الفكرة، ورسم له الطريقة، وجد الشاب عقله وقلبه يتجهان اتجاها أكيدا الى كتابة التاريخ، ودراسة حياة الرجل، وأصبح التفكير فى ذلك شغله الشاغل، وهمه المقيم، وجاوز النظر الى العمل، فاندفع يرى ويسأل ويستمع ثم يسجل معلوماته راجيا أن يقطع الليل المنسدل بين عينيه الى صباح مشرق يسعد باجتلائه فى شغف وارتياح!

لقد انصرف الشاب الى عمله الجديد انصرافا كاد ينقطع به عن التدريس فى الازهر، فلم يعد يجتمع التلاميذ فى حلقته الا لماما، وعكف على تسجيل الاخبار والحوادث يجمعها من المعمرين، فأنشأ صداقات جديدة لأناس يعلمون من خوافى الأمور فى الماضى ما يضع فى يده الحقائق الكثيرة! وأخذ يدون معلوماته فى صحائف متناثرة، ثم يجمعها كما سطرها أول مرة دون تعديل، ويبعث بها الى شيخه الزبيدى، مرتاحا لجهده النشيط! وفى غمرة اجتهاده المرهق وافته الانباء المحزنة بوفاة استاذه الملهم، فاضطرم عليه حزنا وأسفا، وفكر فى مشروعه التاريخى. وقد أحدقت به نذر الفشل والتثبيط، ولكن هواتف نفسه تنبعث فى ظلمات التردد مدوية مجلجلة فتدفعه الى الامل والكفاح، ولا سيما بعد أن عثر فى بيت فقيده الراحل على جميع مدوناته ومخطوطاته التى سبق أن أرسلها اليه ففرح بها فرحا زائدا ووجد فى محتوياتها سجلا رائعا لعهد تصرم وانقطع، اذ دونت من حوادث المماليك ما كاد يغيب عن الاذهان من كل كبيرة صغر أمرها مع الزمن فلم تعد غير خاطرة تعبر، أو ذكرى تحين، وقد كانت فى ابانها كارثة مروعة، ومأساة ذات أثر أليم!

على انه انقطع عن البحث فترةتلمس بهاالهدوء والاستجمام ،ولكنه انقطاع المشوق الآمل الذى ينتظر اقتطاف الثمرة فى حينها المتاح ! وقد يهتم الانسان بأمرها ، ثم يخيل اليه فى ظاهر امره انه قطع صلته به ، وجنح الى شىء سواه ، ولكن عقله الباطن لا يعترف بظاهره الزائف ، فهو فى اطوائه البعيدة ، يجمع ويدخر ويحفظ ويكنز ، حتى اذا امتلأ وطابه بما حواه ، انتقض على صاحبه فاجبره فى غير هوادة على الاذعان التام الى أشواقه وميوله ، وقهره على تسهيل ما اكتنز وادخر ، وكذلك كان الجبرتى ! فقد خيل اليه أنه انصرف عن مدوناته ·

وهو فى حقيقةأمره يرصد أحداث زمانه،ويدخرمشاهداته وتجاربه، وقد اتجه الى نوع آخر من التأليف ، فاختصر تذكرة داود الانطاكى فى الطب ، وتعرض الى نقد كتاب الف ليلة وليلة ، بدافع لاشعورى من شغفه بالتاريخ اذ أن الكتاب فى جوهره تاريخ اختلط فيه الواقع بالخيال والوهم بالحقيقة ! وقد ترك الجبرتى بهذا وذاك مخطوطاته السالفة ! لكن الى حين ·

ومضت الايام فى سيرها الرتيب، حتى حان وقت تدفقت فيه الجيوش الفرنسية فيحملتها الشهيرة على مصر، وتحكم نابليون فى القاهرةبأسلحته وجنوده وعلمائه تحكما قلب المسرح السياسى قلبا مفاجئا ، فبعد أن كان المماليك يمثلون أدوارهم الفاجعة فى عبث واستهتار ، غدونا نجد الضباط الفرنسيين يقومون بأدوارهم الجديدة فى صرامة جازمة ، وتصميم أكيد ، ورجل كالجبرتى قام بتسجيل الحوادث ، وتقدير الرجال ، لا يسمح لقلمه أن يقف مكبلا فى دنيا تزحمها الكوارث ، وتفترسها الاهوال ، فترك مهاد الدعة والجمام ، وطفق يسجل ما يراه ، ويسأل عما وقع بعيدا عن عينيه وهو فى تدوينه يمحص الروايات ، ويزن الامور ، فيختار ــ قدر طاقته ــ ما يجده أقرب الى منطق الحوادث ، وأدنى لواقع الاحوال ، وقد تكاثرت لديه الوقائع ، ووجد من عبر لياليه وعظات دهره ما يقدم به للأجيال اللاحقة سجلا رائعا ، وكتابا حافلا ، وقد رأى بغريزته التاريخية أن يلتفت قليلا الى ما سجله عن الماضى ، فعكف على تبييض مخطوطاته من جديد ، لتكون صحيفة الامس مقاربة فى تسلسلها واطرادها ، ما يخطه فى صحيفة اليوم ، وقد أجمل المؤلف خطته فى سطور ننقلها بأسلوبه عن مقدمة كتابه اذ يقول :

« كنت سودت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثانى عشر وما يليه ، وأوائل القرن الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيها بعض الوقائع اجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها محن أدركناها ، وأمور شاهدناها ، واستطردت فى ضمن ذلك الى سوابق سمعتها ، من أفواه المشيخة تلقيتها ، فاحببت جمع شملها ، وتقييد شواردها ، فى أوراق منسقة النظام ، مرتبة على السنين والاعوام ، الى أمور شاهدناها ثم نسيناها

وتذكرناها ، ومنها الى وقتنا أمور تعقلناها وقيدناها ، وسنورد ان شاء الله ما ندركه من الوقائع بحسب الامكان ، والخلو من الموانع ، الى أن يأتى أمر الله ، وان مردنا الى الله ، ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق» .

هذا منهج الجبرتى ، فهو لم يقصد مجاملة أمير ، أو طاعة وزير ، ولم يداهن دولة بنفاق أو مدح أو ذم يتجافيان عن الأخلاق ، ونحن وقد قرأنا كتاب الرجل نجده قد تمسك بما عاهد عليه القراء ، فى مقدمة كتابه ، بل نجده صادف كثيرا من العنت والارهاق فى سبيل هذا المسلك الصريح !

لقد تحدث الرجل فى جزأى كتابه (الاول والثانى) عن عهد المماليك فذكر فى دقة ما لمسه من أسانيب المشاحنة والمنافسة بين الرؤساء والاتباع والم الملما مسهبا بدسائس الامراء والصناجق ، وتكالبهم على المال والجاه ، وفصل مصارعهم الرهيبة ، وما جلبوه على مصر من محن ونكبات ، ووالى طعناته الدامية الى محمد جركس ومراد وعلى الكبير فبين كيف كان أتباعهم يأخذون ما يحبون من الباعة دون ثمن، فاذا امتنع أحد التجار قتلوه ونهبوا متجره ، وشرح كيف كانوا يخطفون النساء والغلمان ويدخلون منازل الناس ثم لا ينصرفون حتى ينالوا الثياب والغلال والاموال ، وكيف تجرأ هؤلاء الأوغاد بتحريض أمرائهم ، على نهب مصوغات الذهب والفضة من الصاغة وغصب نفائس الحلى من صدور النساء فى الحمامات ، بعد التهجم عليهن هجوما آثما ينكره الاسلام وتأباه الاخلاق !!

يا لله ، لقد تمخضت هذه الفترة الدامسة من عهد المماليك فى مصر عن أسوأ ما تتمخض عنه الايام البائسة ذات المحن الدامية ، والكوارث الشداد !! وقد حرص الجبرتى على رسم مناظرها القانية دون المجاملة الزائفة الى السكوت عن قوم تربطهم بوالده تارة، وبنفسه أخرى روابط الصداقة والضرورة ، فقد كان على الكبير ومحمد أبو الذهب وغيرهما من الامراء على صلة طيبة بأسرة المؤرخ ، وعلائق المودة كانت وما تزال مراد التجاوز والاغضاء ، الا عند من يرصدون أنفسهم لتمحيص الحق الجرىء بعيدا عما يكتنفه من ملابسات ذاتية ، والجبرتى - بلا ريب - فى طليعة هؤلاء !!

وحين نسجل للرجل انصافه الدقيق للمماليك ، لا نجد مناصا من تسجيل انصافه الصادق لأعضاء الحملة الفرنسية ، اذ أن الخلق العريق يطبع صاحبه بطابعه فلا يميل به الى بخس أو تطفيف مهما اختلفت السلعة فى الكفة رخصا وغلاء، وكان الظن بعبد الرحمن أن يقصر حديثه على تصوير الكوارث المتلاحقة التى جلبها الاجنبى الدخيل على قوم مسالمين فيميل بالرصد الى ما ارتكبه الغزاة من تدمير ونسف وتقتيل، وما فرضه المحتلون من ضرائب فادحة تثقل الكواهل وتقصم الظهور ، وما أمطروا به المساجد

والمنازل والاسواق من قنابل وصواعق بعثت الموت والهول فى النفوس ، وما انتهكوا به الحرمات المقدسات ، اذ هجمت الخيول على أماكن العبادة ، وحلقات العلم ، تلطخها بقاذوراتها الدنسة ، وتزعجها بصهيلها المنكر ، وفوارسها المناكيد فوق ظهورها المسرجة يشربون الخمور امعانا فى الكيد ، ومبالغة فى التبجح والاستهتار أجل ! كان الظن به أن يقتصر على تسجيل هذه الفضائح المخزية دون أن يلمح من زاويته الخاصة موضعا لتقدير واعجاب ولكن الانصاف يفرض عليه أن يعترف للقوم بأنهم بذلوا جهد الطاقة فى مجاملة المصريين وتحسين أحوال البلاد ، فوزعوا الصدقات ، واحترموا المواسم الدينية ومنعوا دفن الموتى فى المقابر القريبة ، ورجعوا الى كثير من رجال مصر بالمشورة ذات الاصغاء والتنفذ ، وما اضطرهم الى ما وقعوا فيه من العسف ، غير ما لمسوه من التجمع فالتحرش فالاستفزاز ، وقد أطنب الجبرتى فى وصف الروح العلمية التى أذكتها الحملة الفرنسية فى المجتمع المصرى ، اذ وصف مكتبة المجمع الفرنسى وألم بتفصيل ما شاهده من علماء الحملة فى تجاربهم الكيميائية ، مما كان موضع اندهاش الازهريين من العلماء ، ولنترك الرجل يتحدث بذلك فى فقرات نقتطعها من كتابه بأسلوبه ، لتكون أبلغ فى الدلالة على دقته وانصافه من ناحية ، وعلى دهشته وتحيره أمام معجزات العلم من ناحية ثانية ٠

قال الجبرتى : « وفى بيت حسن كاشف جملة كبيرة من كتبهم ، وعليها خزان ومباشرون يحفظونها، ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من «العساكر» ، واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لايمنعونه الى أعز أماكنهم، ويتلقونه بالبشاشة والضحك، واظهار السرور بمجيئه ولا سيما اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر والمعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم وقد ذهبت اليهم مرارا وأطلعونى على ذلك » ٠

ثم يقول الكاتب فى وصف بعض التجارب العلمية « ومن أغرب ما شاهدته أن بعض المتقيدين أخذ زجاجة بها ماء ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى ، فغلا الماءان، وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف مافى الكأس ، وصار حجرا أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا ، أخذناه بأيدينا ولمسناه ، ثم فعل ذلك بمياه أخرى فجمد حجرا ازرق وبأخرى فجمد حجرا أحمر ، وأخذ مرة شيئا دقيقا من غبار أبيض ووضعه على السندال، وضربه بالمنطقة فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منا وضحكوا منا ، وهكذا نجد تاريخ الحملة الفرنسية مسطورا بخيره وشره وأنت تتلمسه واضحا فيما كتب الجبرتى ، وقد حفظ التاريخ لنا كتابا آخر عن الحملة سطره « نقولا الترك » والفرق ما بين الازهرى المصرى والمسيحى اللبنانى واضح!! فالاول مع تسطيره جميع مايعلم عن الفرنسيين

قد اهتم بحوادث الشعب فى كتابتــه اهتماما لم تفته الدقة والانتبـاه ، والثانى قد سجل ما لمسه عند رجال الحملة الفرنسية والجاليات الاجنبيـة الاخرى بحكم اتصاله الوثيق بأولئك وهؤلاء ، دونأن يتوسع فى تشخيص التيارات المتجاذبة فى طوائف الشعب المصرى ، وقد أخـذ بعض الناقدين على الجبرتى أنه هرب من القاهرة الى الغربية عند قدوم الحملة الفرنسية ، فلم ير اذ ذاك ما يسجله عن الحملة الاسماعا ومناقلة دون مشاهدة ومعاينة، وليس الخبر كالعيان ، وفاتهذا الناقد أن سفر الجبرتى حينئذ لم يتجاوز عشرة أيام رجع بعدها الى القاهرة ، وهى مدة ذات حوادث بارزة لا يمكن أن تمر دون أن يتحدث الناس شهورا طويلة ، فاذا سمع الرجـل وكتب فانمـا يتحرى الواقع فى أهله ، والصدق عن ذويه ، وهـو لذلك يقول : « ولا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار ، وغالبهـا من الامور الكلية التى لا تقبل الكثير من التحريف » .

مضى الفرنسيون فانقضى برحيلهم عهد باد وتصرم ، واستقبلتمصر عهدا آخر سيطرفيه محمد على على الدولةبعد قلاقل ثائرة أدتالى مبايعته. وقد بدأت متاعب الجبرتى ــ بهذا العهد الجديد ــ تزداد وتتهجم ، فالمؤرخ المنصف كان فى ماضيه يقول الحق دون أن تتبعه الارصـاد والعيون ، أما الآن فقد تعذر عليه أن يجد متنفسا لقلمه فى أمد تتحكم به الفردية الطاغية تحكما قاهرا ، ولو أغمض عينيه قليلا لخان رسالته وهاجت عليـه نوازعه بالتأنيب والتقريع ، ماذا عسى أن يصنع ؟ لقد صمم على ان يجتاز طريقه الوعر مهما امتلأ بالاشواك والصخور !! ومهما تعرض الى مهـاو سحيقة يكتنفها الويل والثبور !! وبدأ الرجل يسير ، فاعترف اولا ــ جريا وراء انصافه الدقيق ــ بما قام به محمد على من أعمال هامة فى استعمار الاراضى البور ، وانشاء المصانع واعداد السفن وتشجيع وسائل التجارة بين مصر وغيرها من الاقطار . واستحضار آلات النسيج الحديثة حتى قال فى التعقيب على بعض أعماله « هذه الفعلة من أعظم الهمم الملوكية التى لم يسبق بمثلها » ولكن هذه الحسنات لا يمكن أن تتجرد عما اكتنفها من سيئات ثقال ، فمن المحتم الاكيد عليه كمصـور صادق أن ينقد موجة الاغتيال التى غمرت الشعب تنفيذا لسياسة ارهابى جرىء !

كما أن واجب المؤرخ ألا يغفل الحديث عن اشتعال الغلاء اشتعالا كاد يسلم الشعب الى مجاعة دهياء ، وكان أليما أن يغدر الباشا بأولياء نعمته فيقلب ظهر المجن للسيد عمر مكرم ، وطائفة من أفاضل العلماء والاعيان ، وقد جعل من مصادرة الاموال سيلا ينحدر دافقـا الى خزائنه ، مما ضيق الخناق على أصحابالمتاجر والمصانع ، فأخذوا يتنفسون فى جو خانق كريه، وجنود الباشـا المسـلحون يجددون مآسى الفرنسيين فينتهكون الحـرمات

ويتباهون بالمعاصي ، ويعبثون بالمتاجر والاسواق ، بل ان نجل الباشا ابراهيم يقتدى بأبيه فيصب غضبه الظالم على الرعية صبا رهيبا سجله الكاتب حين قال « ثم سافر ابراهيم راجعا الى الصعيد ، ليتم ما بقى عليه لأهله من العذاب الشديد ، فقد فعل بهم فعل التتار ، عندما جالوا بالاقطار، وأذل أعزة أهلها ، وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل ، سنه دون العشرين عاما ، وحضر من بلده ولم ير غير ما هو فيه ، لم يؤدبه مؤدب ، ولا يعرف شريعة ، ولا مأمورات ، ولا منهيات » ٠

انها الجراة الصادقة تدفع الرجل الى تأنيب القساة الطغاة ولو تضافرت الاقلام على انصاف الحق، ماوجد طاغية يتبجح بالمظالم ويخوض فى الشهوات دون أن يسمع غير الاطراء الكاذب ، والرياء المقيت ، وقد كان الجبرتى جريئا ، فلم يكتف بتسطير المظالم دون تعقيب ، بل رأى من حق التاريخ عليه أن يشفع مخازى الآثمين بتنديد فاضح يذكى الحفائظ ويلهب الصدور، فى وقت وجد به أناس يجعلون من هذه المثالب محاسن رائعة ! وجلائل حافلة لا تتعلق بها الآمال وخيال الباطل فسيح مديد ٠

ذاع نقد الجبرتى ، وتناقل الناس ما سطره عن محمد على وابراهيم ، ثم عن أشياعهما من الاصهار المتجبرين ، كمحمد الدفتردار وسليمان اغا السلحدار وكلاهما كان طاغوتا رهيبا لا يذر من شىء يأتى عليه ، بل طالما استمد من سلطان الوالى رهبة قاتلة ، تذل النفوس وتلجم الافواه ! فما الذى يكافأ به الجبرتى ازاء صراحته فى عالم تهون لديه الارواح الانسانية هوانا يلحقها بالحشرات والهوام !

ان النتيجة الرهيبة متوقعة محتومة ، فلا يعقل أن تنكمش الاحقاد المتجبرة عن فريسة عزلاء لا تفزع بقوة أو ترهب بنفوذ ٠ ولا ريب أن المؤرخ كان يعلم تمام المعرفة فى أى طريق يسير ! والى أى مهوى ينحدر ! وهنا موطن الاسوة ، ومجال العبرة ! هنا مكمن العظمة فى أفذاذ أماثل ، يقدمون أرواحهم قربانا للعدالة والانصاف ، وينصبون أقدامهم مثلا حيا للبطولة والفداء ! ولو لم تكن للجبرتى هذه الروح السامية الرفيعة لعاش كالآلاف من الافراد : يجامل الطغيان ويتملق العدوان ، ويقضى حياة ذليلة ضارعة تنتهى به الى موت آسف لهيف ، ويمر مماته الهين مرورا ساكنا شاحبا ، فما بكت عليه أرض وما تفتحت لاستقباله سماء !

أما كيف تمت المأساة فقد اختلف فيها الكتاب اختلافا لا نرى داعيا له اذا تأملنا منطق الحوادث ، وقارنا الاشباه بالنظائر ، فهناك روايتان متباعدتان ، رواية تقول : ان حكم الاعدام قد نفذ فى المؤرخ بعينه عن طريق الاغتيال فى طريق موحش بهيم ، بتحريض من محمد على ، وتنفيذ من سليمان أغا السلحدار ٠

ورواية تقول : ان الاغتيال قد وجه الى خليل الجبرتى نجل المؤرخ فتفجع والده عليه ، وكف ما بقى من بصره حتى لحق بولده بعد ايام !، وقد ذكر الرواية الاولى أكثر المصادر الاجنبية وفى مقدمتها دائرة المعارف الاسلامية ، وأيدها الاستاذ أحمد حافظ عوض فى خاتمة كتابه القيم عن تاريخ مصر الحديثة ، وهو فى رأينا أقرب الروايتين الى المنطق ، اذ أن محمد على قد اعتاد أن يتوجه بشره الناقم الى أعدائه المباشرين والاب هدف أصيل يجب أن يتوجه السهم اليه ، كيلا يظل عاكفا على تسويد صحائفه ، بما يذيع ويشتهر فى دنيا صاخبة ، تتناقل المثالب تناقلا طائرا . لا يقف فى مكان أو ينتهى عند غاية ولا سيما اذا كان تنفيسا عن صدور مكروبة، وقلوب ممتلئةفهى تقضى وطرا عاما من أوطارها، بقراءة صحائفالجبرتى وترى فى نقده أنشودة ساحرة تهدأ لها الخواطر. وتجذب نحوها الاسماع! وان طاغية كمحمد على يبطش بأعدائه المماليك ، على كثرتهم الكاثرة فى ساعة واحدة لهين عليه جداأن يتخلص من يراع صادق يدونمثالبهوينشر مساويه فى غير تحفظ واكثرات ، ولماذا يترك محمد على فى حياته أمدا فسيحا تنفجر به براكين سخطه متأثرا ابنه الفقيد ــ لو صحت هذه الرواية ــ فيواصل هجومه الثائر عن قلبموتور وصدر ملتهب وكبد ذات تباريح !

ان اغتيال الجبرتى نفسه هوالحل الطبيعى الذى يتجه اليه عقلغاضب متجبر كعقل محمد علىدون أن يتطرق الى اغتيال سواه مهما عزت مكانته، واشتدت آصرته ، وعظمت حرمته لدى المؤرخ الدقيق ، على أن الذين يلحقون الكارثة بنجل الرجل ، يجمعون على أن والده فقد صوابه ، اذ داهمه الخبر الفاجع وانتفضت عليه علله وأوجاعه وكف بصره فما يستطيع أن يخط حرفا ، وأحاطت به النذر الغاشية من تهديد الوالى ووعيده ، فاخذ يترقب مصرعه بين آونة وآونة وقضى أياما حائرة مضطربة ، أهون منها السكون الابدى فى حفرة آمنة عزلاء لا يدب اليها كيد ، أو تنصب حولها فخاخ ، مهما كان من اختلاف الروايتين ، وتباعدهما تباعدا تفترق نتيجته ، فقد نزلالشر بالرجل نزولا عاصفا، ثم ودع الحياة توديعا مريرا، دونأن يجد من معارفه من يزفر عليه زفرةرثاء، أويسكبفوقضريحهعبرة أسفة، فقد بدد الارهاب الخانق وفاء الأصدقاء وعصف بولاء المخلصين !! الا ما كان من همس الشفاه وتساؤل النظرات ! وامتد وراء الراحل العزيز ليل حالك دامس تكشفت غياهبه القاتمة عن فجر يومض ثم عن صبح يشرق وينير ، فاذا الرجل بطل خالد ، ومثل يحتذى ، وذكرى تتعطر بها الاجيال !!، والعاقبة للمتقين ٠

جمال الدين الأفغاني باعث الشرق

يقول المتنبي :

يقولون لى مأأنت فى كل بلدة   وماتبتغى؟ ماأبتغى جل أن يسمى

لعل هذا البيت لا يصدق على انسان كما يصدق على العالم المصلح الفيلسوف جمال الدين الافغانى ، فقد كان ذا أمل كبير يدفعه الى التنقل فى شتى الممالك القاصية لا لينعم بالرحلة الهادئة ذات البهجة والانتعاش، بل ليقيم فى كل أرض ثورة ، ويشعل فى كل ممـلكة ضراما ، وليهدم ما تعفن من الآثار البالية، ويقيم على أنقاضهصروحا عالية من العزةوالاستقلال وان رجلا واحدا يمكنه أن يزلزل الشرق الهامد بصيحته العالية لجدير أن يكون رنان الصوت طائر الصيت !!

لقد نشأ جمـال الدين فى عهد يائس حزين ، كانت فيه الممالك الاسلامية جميعها دون استثناء أشبه بالمريض المنهوك الذى سرى الداء فى كل عضو من أعضاء جسـمه ، فالتأخر والجمود والاحتـلال تجثم بقيودها الثقيلة على كل دولة . ومن فاتها الاحتلال الظاهرى بالعسكر والجيشفان الاحتلال المعنوى يطبق عليها بقيود مستترة ، تحس ثقلها الحديدى دون أن تراه العين ، وقـد طغت الدول الاستعمارية بما ملـكت من القوة والعـلم طغيانا مكنها من الشر والبغى والاستغلال ، وليتها اقتصرت على ما تعتصره من الارزاق وتستنزفه من الخيرات . بل اتجهت بمعاولها الهادمة الى الدين الاسلامى تصمه بالرجعية والتزمت والضيق وتنسب الى تعاليمه أسباب التأخر والانحطاط ثم تعرض مفاتن أوربا وما ابتدعته فى عصور النهضة من فنون ، وما وصل اليهالعلم العصرى من مستحدثات ، متخذة من ذلك كله دلائل ساطعة على انحطاط المسلمين بوقوفهم عند دينهم البدوى المتاخر كما يتصور هؤلاء ! وكان الجهل المطبق يدفع الكثير من المسلمين الى القنوط واليأس ويشككهم فى القيمة الحقيقية للشريعة الاسلامية وبقائها الحى على تناسل الاحقاب حتى وجد جمال الدين ، فدرس عصره وألم بمعضلاتالعالم الاسلامى ورأى أن الدين براء مما ينسب اليه ، وأن المسلمين لم يتقهقروا فى مضمار الحضـارة والعلم الا لأنهم تركوا الدين وراءهم ظهريا فظلموه ظلما فادحا حين انتسبوا اليـه بالقول ثم خالفوا جميع أوامره ونواهيه ، فحقت عليهم كلمة الله !!

ولو لم يكن جمال الدين من طراز نادر ممتاز لتسرب اليه اليأس فى ظلمات هذا الليل الحالك • ولكن شعاع الايمان فى قلبه قد انتشر وهاجا ساطعا ، فأخذ يشق له الطريق فى لجج هذا الظلام البهيم وصمم على الجهاد العنيف ليحيى الميت ، ويخصب المحل الجديب •

ومن هنا كان تنقله الحثيث فى كل دولة ورحلاته المستمرة فى كل أرض • فما يبتغيه أجل من أن يسمى • وأبعد من أن يتطاول اليه انسان سواه !

فهو مثلا فى بلاد الأفغان موطن آبائه وأول أرض تنسم بها ريح الحيـاة ، قد رأى الخلاف الداخلى يمزقهـا شيعا وأحزابا ، ورأى الاستعمار يزيد من حدة هـذا الخلاف حتى صـار الأمراء فى حـرب لاتنقطع ، لكل أمير جيش وأعوان يتصارعون مع اخـوانهم المواطنين ، فيدفعون البلاد الى الدمار الحاصد والفنـاء المبيد • فرأى على حداثة سنه أن يدخل المعترك السياسى ، وأن ينضم بعزيمته وعقله وايمانه الى من يعتقد فيه الصلاح والخير للاسلام ، فرجحت الكفة به • وسالمه الدهر حينا ، ولكن الدسائس الاستعمارية لا تسكت عن محـاربة الاصلاح ، فألقت بكيدها وسلاحها ومالها الى الميدان حتى تغلب الباطل، ولاذ جمال الدين بالفرار الى الهند !!

ولم تكن الهند غريبـة عن الرجل • فقد تعلم بها فى صباه ودرس ظروفها السياسية والاجتماعية فعرف أن الاستعمار الانجليزى يرهقها بطغيانه الرهيب • ومن ثم فقد اخذ ينشر بين الهنود دعوته الى الخلاص والاستقلال وتتبع أساليب الاستعمار ليفضح مساويها الشائنة • وينزع الثياب عما تضمره من فضائح ومخزيات • وكان طبيعيـا ان يضيق به المسـتعمرون فيجبروه جبرا قاهرا على مغـادرة البـلاد • والرجل لا يستسلم ولا يستكين بل يلتفت الى المندوب الانجليزى ليقول له فى كبرياء « ان تخوف حكومة بريطانيا من زائر أعـزل مثلى يسجل عليها وهن عزيمتها وضعف شوكتها وقلة عدلها ؛ وعدم امنها ، وانها فى حقيقة حكمها لهذه الاقطار اضعف بكثير من شعوبها » •

وينظر جمال الدين فيرى المنـدوب الانجليزى ينكسر ويتضـاءل ويلمح الدموع تترقرق فى عيون الآلاف من مودعيه ممن آمنوا بمبادئه ، واستيقظوا على صيحته ، فلا يلجأ الى مجاملتهم فى هذا الموقف العاطفى الحـزين ، بل ينفجر كالبركان صائحا فيمن حـوله ملهبـا شـعورهم الهامد اذ يقول : « يأهل الهند ، وعـزة الحق ، وسر العدل ، لو كنتم وانتم تعدون بمئـات الملايين ذبابا ، لكان طنينكم يصم آذان بريطانيـا العظمى ، ولو كنتم وأنتم مئات الملايين وقد مسخكم الله وجعل كلا منكم

سلحفاة وخضتم البحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا لجررتموها الى القعر وعدتم الى بلدكم أحرارا »

ثم رحل الرجل الى مصر تاركا وراء كل حرف من هذه الحروف جمرة تشتعل ، ولهيبا يتطاير ليلتهم اوكار البغى والاستبداد !

الى أين يمضى هذا الشجاع الصنديد ؟

لقد اتجه الى مصر ليصل رسالته فى البعث والايقاظ . وقد زارها مرتين . فعرف وجوهها وأحوالها واتصل بأزهرها الاسلامى ليتخذ من طلابه دعاة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ولم تكن الأحوال فى مصر بأحسن منها فى الهند. فقد استدان اسماعيل وبالغ فى القرض والتبذير حتى جر الاستعمار الى وطنه . وقد الف الناس الاستكانة والانصياع ، فأخذ يفتح العيون على ما يجرى فى البلاد من أهوال ويتصدر المجالس ليعلن آراءه فى الحكام وبرامجه فى الاصلاح . ثم اختار صفوة من تلاميذه ودفعهم الى الكتابة فى الصحف ليصوروا الفساد الداخلى ، ويفضحوا الطغيان الخارجى ، ثم يرسموا طريقة الخلاص بالاستقلال التام ، واقامة حكومة دستورية تخضع لبرلمان متيقظ ، يحاسب على التبذير والرشوة ، ويحد من الفردية الدكتاتورية فى الحكم والسلطان . وقد عزل اسماعيل فى هذه الظروف التى خلقتها مآسيه المتلاحقة ، وجاء ولده توفيق وكان ذا صلة بجمال الدين فأدرك الحاكم الجديد قوة تأثيره ــ واراد ان يلاطفه ليرجع عن مبادئه فىالحرية والاستقلال وهما منه ان الرجل قد يستجيب وينسحب دون ضوضاء. وكان أن هيأ اجتماعا عاجلا فى القصر الخديوى بداه توفيق فقال مداهنا مراوغا : انى احب كل خير للمصريين ، ويسرنى ان أرى بلادى وابناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن مع الاسف أن أكثر الشعبجاهل لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة فيلقون انفسهم والبلاد فى تهلكة .

فاعتدل جمال الدين فى مجلسه ثم رفع راسه ليقول فى اعتداد : « ليسمح لى سمو أمير البلاد ان اقول له : ان الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين افراده ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به الىالشعب المصرى ينظر اليكم ، وان قبلتم نصح هذا المخلص ، واسرعتم فىاشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون باجراء انتخابات نواب عن الأمة ، تسن القوانين وتنفذها باسمكم وارادتكم يكون ذلك اثبت لعرشكم وادوم لسلطانكم » .

وانتهى اللقاء بعد أن لمس توفيق خيبة مسعاه !

لقد كان جمال الدين يدرك بعد هذه المقابلة ان أيامه فى مصر محدودة فانبعث يشعل اللهب بخطبه وأفكاره . وكانت به حدة قاسية تلجئه الى العنف الصريح دون مواربة ، فانشأ محفلا ماسونيا جديدا بلغ اعضاؤه اكثر من ثلثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين المصريين «وكان فى هذا المحفل مطلق الحرية ، نظم شعبا للأعمال المختلفة: فشعبة للحقانية ، واخرى للمالية وثالثة للاشغال ورابعة للجهادية وهكذا لكل وزارة ومصلحة شعبة ، تدرس كل شعبة شئون وزارتها ومصالحها وتعرف ما يقع من الظلم ووجوه الاصلاح فيها . ثم كل شعبة تتصل بالوزير المختص وتبلغه رغباتها فى اسلوب حازم صريح فكان لذلك هزة فى الأندية والمجتمعات » (١) .

وصاحب ثورة كهذه الثورة لا بد أن يحارب بعنف ، فقد تعاون الاستعمار الخارجي والطغيان الداخلى على ابعاده ففادر مصر ولكن بعد أن أعد الموقد وأشعل الثقاب !!

يئس الفيلسوف من متابعة الاصلاح فى بلاد الشرق فرأى أن يتجه الى الغرب ليجد من الحرية فى صحفه وأنديته ما يكفل لآرائه الذيوع ، وجعل يتنقل ما بين روسيا وانجلترا وفرنسا متخذا من صحافتها المنتشرة ميدانا لافكاره الجريئة فى مناوأة الاحتلال ، وتذكر تلميذه الوفى محمد عبده فدعاه من بيروت الى باريس ليصدرا معا جريدة العروة الوثقى . فكان لها على قصر مدتها الوجيزة من الدوى والصليل ما أرهب الاستعمار ، فتحالف على مناوراتها وحارب انتشارها محاربة قاهرة . واخذ يترصد اعدادها فى مختلف مصارف البريد ليصادر ما يتجه الى الشرق فى حقد واضطغان ، ومع هذا الخطر العارم فقد تسللت الى أيدى الكثيرين ردحا من الزمن . ثم اضطرت الى الوقوف بعد نضال حميد!

وقد شاءت انجلترا أن تسكت الرجل بأسلوبها الخاص ، فهى تعلم أن القمع لا يجدى معه فى شىء اذ ينتقل الدوار من افق الى أفق دون تعويق ، فرأت أن تستميله بالمنصب الخطير ليكون لها من وراء هذه الشخصية الفذة ساعدا قويا يمكن لها من النفوذ والاستعلاء . وكانت ثورة المهدى بالسودان اذ ذاك قد بلغت قمتها العالية وعجز الأسد البريطانى عن مواجهتها بأسلحته وعتاده فرأى أن يبعث بجمال الدين الأفغانى الى السودان ملكا رسميا تلتف حوله الجموع ، ليستطيع بمكانته وعلمه أن يجمع حوله المسلمين قاطبة ، فتخبو نار الثورة ؛ ويصبح السودان لقمة سائغة فى فم انجلترا . يقدمها السيد الأفغانى

---

(١) من كتاب زعماء الاصلاح نقلا عن محمد المخزومى باشا .

لها طواعية ؛ اى وهم قد تمكن فى نفس المستر سالسبرى رئيس وزراء انجلترا اذ ذاك قصور له أن جمال الدين دمية فى يده يرمى بها كيف يشاء.

لقد ظنه انسانا مريضا يحب الجاه والمنصب كأكثر من يرى ويعامل من الناس ولكنه بوغت منه بداهية عنيد نظر اليه نظرة صاعقة، ثم صاح فى وجهه بكبرياء وعظمة : هذا تكليف غريب ، وسفه فى السياسة ما بعده من سفه ، هل تملكون السودان حتى تتوجوا عليه ملكا يخضع لارادتكم كما تشاءون ؛ ان مصر للمصريين والسودان جزء متمم لها وصاحب الحق الخليفة الأعظم حى يرزق ؛ ولديه من الجيش المادى والمعنوى مايذلل معهما كل صعب فى الكون الاسلامى وأجزاء ممالكه.

ولم ينتظر أن يطول النقاش ، بل أنهى المقابلة سريعا وخرج من دار رياسة الوزراء فى لندن ليتوجه الى باريس من جديد !

على انه لم ينس فى مضمار السياسة أن يحمل القلم فى مجال التأليف والنقد فكتب رسالة طويلة فى تفنيد نظرية الارتقاء والتطور سمى اصحابها بالدهريين كما يسمون فى كتب النحل الاسلامية من قديم، ونظر فى الصحف الباريسية فرأى الفيلسوف الفرنسى « رينان » يشن حربا طاحنة على الاسلام فأخذ يهرف بما لا يعرف ، وينسب الى تعاليمه من الجمود والتزمت ما هو بعيد عنها بعد الأرض عن السماء ؛ فحمل جمال الدين يراعه القوى ليقذف بالحق على الباطل فيدمغه ؛ وطارت ردود السيد كل مطار فقرأها رينان فى دقة وعقب عليها بما ينبىء عن تراجعه حينا وتخبطه حينا آخر . وعرف الأوربيون عن طريق هذه المناظرة الجهيرة كثيرا من الحقائق الاسلامية الصريحة رائعة باهرة بعد ان ملأ المستشرقون أذهانهم بالفاسد من الآراء عن عمد أثيم . وما كاد المسيو هانوتو بعد ذلك بأعوام يعيد الكرة الظالمة فى حرب الاسلام حتى انبرى له تلميذ جمال الدين الشيخ محمد عبده ؛ فبلغ مبلغ استاذه من التوفيق والسداد ، وهكذا يجد الحق نصيره فى كل زمان ومكان!

وبعد فهل ارتاح السيد فى تجواله اللاغب فى الشرق والغرب لايقاظ الشعور الدينى ، وبعث العملاق النائم من سباته العميق ! هيهات هيهات ، فقد تعرف بشاه ايران وعاهل الفرس فى بعض جولاته الأوربية، ورأى الشاه فى جمال الدين طرازا رائعا من العلماء . فصمم على ان يصحبه الى مملكته الفارسية ليكون مستشاره الناصح فى ادارة البلاد. وانبعثت فى نفس السيد آمال كبيرة تتجه الى الاصلاح والبعث فصارح الشاه بوجوب انشاء حكم دستورى نيابى ؛ وجمع حوله من رجال فارس من اقتنعوا بمذهبه فى الاصلاح ممن ينقمون على الحكم الفردى فظاعته واستبداده ، ونظر الشاه فاذا مستشاره الناصح ينادى بآراء

تقيد من طغيانه الفردى فواجهه باللوم وثبت السيد عند رايه فناقش وافحم . ومضت شهور قلائل تحرج بها الموقف بين الرجلين تحرجا زاد من هوته اقبال الفارسيين على جمال الدين والتفافهم حول مبادئه الدستورية ، فلم ير الشاه مناصا من القبض عليه فى أثناءمرضهالعارض ثم رمى به خارج حدود بلاده ليجد المريض المحموم نفسه فى العراء تحت سياط البرد والثلج والشتاء !!

لا بأس ! فالشدائد تهون لدى أصحاب الآمال البعيدة والمطامح العالية من الرجال ، وقد هان على السيد ما يلقى من الناس ! فلم تفتر له عزيمة واتجه الى الآستانة موطن الحكومة العثمانية ومربض عبدالحميد السلطان ! وكان فى الخليفة دهاء وحيلة ، فأدرك ما يعتمل فى نفس المصلح الكبير ، وعلم من واقع رحلاته وسجل أعماله آماله المخلصة فى اقامة دستور عادل يطيح بحكم الفرد ، فلم يشأ أن يأخذه بالعنف القاهر ، فيؤلب عليه أتباعه الكثيرين فى شتى ممالك الاسلام بل قابله مقابلة الصديق الشفيق وقرر له راتبا ، وافرد قصرا لاقامته، ثم عرض عليه منصبا دينيا خطيرا ، ولكن السيد لا ينشد راحته الشخصية حتى يقنع بما أعد له من نعيم ، فطلب مقابلة الخليفة على انفراد وصارحه فى اعتداد بأن الحكم الفردى يحتاج الى تغيير جوهرى وان الشورى يجب ان تكون أساس هذا الحكم كما هو معروف فىالدول الاوربية ذات القوة والحضارة والازدهار ...

وكظم عبد الحميد غيظه حتى انتقل جمال الدين من مجلسه فأرسل كبير الياوران ليقول له فى كثير من العتاب « ان اجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل . واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة وانت تلعب بالسبحة فى حضرته »

فرد جمال الدين محتدا « سبحان الله ! ان جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة على هواه ولا يعترضه منهم أحد ! افلا يكون لجمال الدين الأفغانى حق أن يلعب بسبحته كما يشاء » !

واعجبا او كنا بصدد دراسة نفسية تحليلية لمواقف السيد ، لراينا فى امثال هذه الردود المفحمة ما يكشف القناع عن عظمته العالية وكبريائه الرفيعة على الجبابرة والطغاة . ولكن طبيعة هذا البحث تعجلنا عن كل ذلك ، فنطوى الكلام طيا ، لنذكر فى اقتضاب أن المقام لم يطب للرجل فى الآستانة ، وكان المرض قد أناخ على جسمه بكلكله فرماه السرطان بداء لا منجاة منه ، وودع الحياة قانعا بما أيقظ من همم واقام من ثورات واحيا من موات ، فتزلزل العالم الاسلامى لرحيله .

وتطلعت العيون فى حسرة الى الكوكب الهاوى متسائلة عن ضوئه اللامع فى حوالك الأزمات .

رمى السرطان الليث والليث هــادر
ورب ضعيف نافــذ الرميـــات

وشاعت تعازى الشهب باللمح بينها
عن النير الهــادى الى الفــلوات

عبد المجيد سليم بقية السلف الصالح

اكتمل لامام أهل السنة المغفور له الاستاذ الاكبر الشيخ عبد المجيد سليم (١) من جلال العلم وعظمة الحق وقوة الايمان مالم يكتمل لسواه من النظراء والأمثال ، فقد كان رضى الله عنه من أخلاقه المثالية في هيبة منيعة ، يصغر دونها اعظم الرؤساء من ملوك ووزراء ! فلا يحاولون ان يصارحوه بما لا يرضى المؤمن المتحرز ، والعالم العيوف . وقد جاءت سيرته الطاهرة كتابا مفصلا للرجولة العالية ، يقرؤه الناس فيجدون المثل الاعلى قد تجسم واقعا ملموسا فى أعمال الرجل وأقواله . واذا كان من السلف الصالح من شابه الشيخ فى ابائه وترفعه فان معاصرتنا الشاهدة لحقيقته المؤمنة فى القرن العشرين تؤكد لنا أن مصباح الحق دائم الاشعاع ، فهو ينتقل من العصور الغابرة الى العهود الحاضرة دون أن يطفأ له ضياء ، ويأبى الله الا ان يتم نوره !

ولو اردت أن ترجع جميع مواقف الشيخ الى سبب واحد ، ترتكز عليه أفعاله وتصدر عنه أقواله ، ويكون مفتاح شخصيته الذى تدرك به أسرارها الكامنة ومواهبها المدخرة لوجدت هذا السبب ينحصر فى شىء واحد لا لبس فيه ولا غموض ! انه الثقة بالله وحده تسيطر على نفسه ، فيهون دونه كل جليل يكبره الناس !

لقد وثق بالله حين اقبل على العلم اقبالا مخلصا ، فمنحه ذات نفسه وتفرغ عن رغبة أكيدة لاقتناص شوارده ، واكتناه غوامضه ، ولم يقبل فى عهد التلمذة أن يقتصر على علوم الأزهر وحدها بل جمع اليها المنطق والفلسفة حتى عرف بين زملائه بابن سينا . وقد اختار من أساتذته فى حلقات الأزهر من آنس فيه البراعة والاستيعاب ، فهو يحضر دروس الاستاذ الامام محمد عبده فى الرواق العباسى لمدة خمس سنوات فيدرس عليه كتب عبد القاهر فى البلاغة حينا وتفسير كتاب الله حينا آخر ، وهو يتلقى شروح المنطق والفلسفة عن أستاذه الشيخ حسن الطويل فيلم بأفانين من الجدل والقياس لم تكن مألوفة للداته من الطلاب ، ثم هو يجد فى استاذه الشيخ احمد ابى خطوة موردا دافقا فى

---

(١) انتقل الى رحمة الله في ١٠ من صفر ١٣٧٢ هـ .

الفقه الاسلامى فيأخذ عنه التبحر فى المسائل الفرعية والتعمق فى الفتاوى الفقهية . ويشهد له بالاطلاع الشامل والصبر الطويل بل انه يقارن غير مرة بين ابى خطوة والاستاذ الامام فيجد الأول اكثر الماما بمسائل الفقه وادلة الأحكام غير أن الامام فى راى الشيخ يمتاز بسعة الأفق وسلامة التعليل وامتداد الصيت ! هذا الى بيان مشرق يجذب اليه الناس فيصبح اقدر العلماء على الافادة والتوجيه .

وقد شاء القدر ان يكون الاستاذ خليفة الامام فى الافتاء فعالج فى فتاواه الكثيرة معضلات العصر وقضايا المدنية الحديثة كما عالجها الامام فى فقه بصير وفهم مستنير . وقد تحدث رحمه الله فى بعض اعداد مجلة الرسالة عن منهج استاذه فى الفتوى ومنهجه الخاص الذى يحتذيه فقال نقلا عن العدد الممتاز (٤٤٩) :

« ان الناحية التى تجلت فيها مواهب الأستاذ الامام : هىادراكه الصحيح لمعانى القرآن الكريم ، وفهمه الدقيق لأغراضه ، وتذوقه لأسلوبه ومعجز بيانه ، مع بصر عظيم بأحوال الناس وعبر التاريخ ، واسرار تقدم الأمم والشعوب ، يؤزر ذلك قلب جرىء وعقل متصرف .

وكان يعتمد فى فتاواه على ادراك روح الشريعة ، وتبين أغراضها العامة ، لا على مناقشة المذاهب وترجيح آراء الفقهاء ، ولذلك تأتى فتاواه غالبا مختصرة . وقد تثير خلافا بين أهل العلم . ومن امثلة ذلك انه افتى فتواه المشهورة بجواز لبس البرنيطة ، فقامت من اجلها ضجة هائلة ، فلما أردت أن أفتى فى الموضوع ، انتفعت بموضع العبرة فيه ؛ فاخرجت فتواى التى تجيز ذلك اخراجا فقهيا مؤيدا بأقوال العلماء ، جاريا على طريقتهم فى الاستدلال والترجيح ، فلم يستطع أحد ان يشغب على » .

واذا كان الاستاذ الامام لم يتقيد بمذهب معين فى فتواه ، فان خليفته الأستاذ عبدالمجيد قد ورث عنه هذه السعة الفسيحة فى قبول الآراء المختلفة ما دامت مؤيدة بالدليل ، فأنحى باللائمة على من يعتصمون بقول خاص لا يحيدون عنه ، بل ان أثره كان قويا ملموسا فى جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية ، وهى التى تنص المادة الثانية من قانونها على « العمل على جمع أرباب المذاهب الدينية الذين باعدت بينهم آراء لاتمس العقائد التى يجب الايمان بها ، مع السعى الى ازالة ما يكون من نزاع بين شعبتين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما » .

فقد كان رضى الله عنه وكيل الجماعة فاكسبها جلالا ومقاما ، وجذب اليها الصفوة من اتباعه ومريديه ، وقد تحدث فى اول عدد من مجلتها « رسالة الاسلام » فقال :

« ولقد ادركنا فى الازهر على أيام طلبنا للعلم عهد الانقسام والتعصب للمذاهب ، ولكن الله اراد ان نحيا حتى نشهد زوال هذا العهد وتطهر الأزهر من أوبائه واوضاره . فأصبحنا نرى من العلماء من يخالف مذهبه الذى درج عليه فى أحكامه ، لقيام الدليل عنده على خلافه، وقد جريت ــ طول مدة اقامتى بالافتاء فى الحكومة والازهر وهى أكثر من عشرين عاما ــ على تلقى المذاهب بالقبول ، ما دام دليلها عندى واضحا، وبرهانها لدى راجحا » .

ولا نجد خدمة توجه الى الفقه الاسلامى اجل من جمع فتاوى الشيخ وقد بلغت أكثر من خمسة عشر ألف فتوى فى مجلد خاص ، يكون مرجعا متداولا بين الفقهاء والدارسين وتلك رغبة ملحة طالب بها الكثيرون .. ولعلها تجد طريق التنفيذ ، ليلمس الباحثون أمامهم راى الاسلام الصحيح فى مشكلات العصر ومعضلات المدنية والحضارة مؤيدا بالقياس والدليل .

وقد اعترف أساطين الفقه واساتذة القانون بما لآراء الشيخ من قوة وسداد ، فقد كان مرجع الأفذاذ الاعلام من ذوى التشريع يسألون فيجيب ، ويترددون فيجزم، حتى أن اللجنة التى ألفت للأحوال الشخصية فى وزارة العدل برياسة الأستاذ الاكبر محمد مصطفى المراغى وعضوية شيوخ المذاهب بالأزهر وأساتذة الشريعة بالحقوق ورئيس المحكمة الشرعية العليا ووكيلى وزارتى العدل والمعارف ! هذه اللجنة الممتازة كانت تعتمد اعتمادا كليا على جهود الاستاذ وبحوثه ! وقد كتب رئيس محكمة الاستئناف الأسبق الأستاذ محمد محمود يعلن ذلك بجريدة الأهرام عقب وفاة الشيخ فيقول من كلمة مخلصة فى الرثاء :

« وقد كان المرحوم الشيخ عبدالمجيد سليم فى هذه اللجنة النجم اللامع والحركة الدائمة ، اذ كانت تعرض الموضوعات والمسائل على اللجنة بعد سبق بحثها وفحصها ، وعند ذلك يأخذ الراحل الكريم الكلمة فيتولى شرح الموضوعات والمسائل الواحدة بعد الأخرى، مستعرضا شتى الآراء ومختلف الصور فى كل مذهب من المذاهب . مقررا حكم الشرع ، ذاكرا راى الائمة المجتهدين والفقهاء المؤلفين ، مسايرا روح العصر ، متنقلا من فن الى فن ، وهو فى ذلك كله كالبحر المتدفق حتى اذا انتهى من جولته العلمية ومحاضرته الفقهية ، قامت اللجنة بالبحث والتمحيص واستنباط الحكم الملائم تمهيدا لاعطائه الصفة النهائية »

وان فقيها علامة تكون له هذه الفتوح التشريعية لجدير أن تيسر آراؤه للناس لتمد القانون الاسلامى بفيض غزير .

على انك لو وجدت من رجال الفقه الاسلامى فى عصرنا الراهن من

مائل الشيخ فى اتجاه التشريعى كالسيد محمد رشيد رضا والشيخ محمد بخيت المطيعى ، فلن تجد من فقهائنا المعاصرين من ماثله فى قوة الايمان ومجابهة الباطل والاعتزاز بالله وحده ! وتلك عجيبة الرجل حقا ! فقد كان حلقة ثمينة فى سلسلة ذهبية تجمع نخبة مؤمنة من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وأوذوا فى سبيله فما ضعفوا وما استكانوا لما اصابهم وارتفعت اصواتهم مجلجلة رنانة تندد بالطغيان السافر وتدعو الى الحق الصريح ! فقد قدر على الأستاذ ان يعيش فى زمن منافق لئيم يسوده استعمار خارجى من اوروبا الظالمة ، وداخلى من فساد القصر وتشاحن الحزبية ، وكان الظن بأبناء الأزهر ان ينابذوا جميعا ذلك الفساد فى شتى وجوهه ، وأن يحاربوا الطغيان فى مختلف صوره ، ولكنهم لم يكتفوا بالسكوت على الباطل بل خب بعضهم ووضع فى الحزبية المتناحرة جنبا عاد على العلماء بالنكبة والخذلان وعلى الطلاب بالخيبة والهوان !

ولم يسكت الشيخ كغيره . بل جاهر بالدعوة الى نبذ الحزبية وعارض فى صراحة واضحة من يرون مشايعة القصر ومسايرته مهما كان لهم من السطوة والنفوذ . ورأى ان واجبه الألزم يفرض عليه أن يكون ممن يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فأعلن رايه فى السياسة الطائشة ، وتزعم فئة من ذوى الاتجاه الصائب والثقافة اللامعة والحفاظ الغيور ، وهى اليوم بفضل الله تسيطر على الأزهر وترسم له الطريق للتوثب والنهوض، فكافح بها البغى ما استطاع! وقد دفعته رجولته النادرة أن يعلن رايه الصريح فى القصر الباغى والحزبية العمياء وهو شيخ للأزهر دون أن يحرص على منصب زائل أو يخاف مغبة متربصة ، فقال فى حديث طويل نشرته جريدة الأهرام فى ذكرى الاستاذ المراغى تحت عنوان « امام يحيى ذكرى امام » .

« لقد كنت أنا والشيخ المراغى صديقين حميمين ، كلانا يحب صاحبه ، ويقدر فيه مواهبه ، ولم تكن هذه الصداقة عارضة بل كانت أصيلة . ولكننا مع ذلك اختلفنا بعد لأى من مشيخته الثانية للأزهر، وكان خلافنا معروفا للخاصة والعامة من الازهريين ، وسببه الجوهرى ميله رحمه الله الى ناحية السياسة الحزبية ، وشدة نفورى من ذلك؛ فانى ارى ان الخير كل الخير ان يتجنب العلماء السياسة الحزبية ومتاعبها التى تفضى الى ما لا يحمد من العواقب » .

ومعنى هذا الكلام بصريح العبارة أن الاستاذ المراغى قد دفع بالأزهر الى تأييد القصر ومعاونة من يرتضيه من رجال الأحزاب . وليست تلك مهمة رجل الدين فالأجدر به ان ينأى عن مشايعة ذوى

المآرب المريضة والأهواء المفرضة من النـاس . وقد هاج القصر وماج لذلك الحديث الجرىء . وسلط من اذناب الكتاب من يهاجمون الشيخ على صفحات الجرائد ويزعمون دون استحياء انه يتجنى على سـلفه الراحل ! وكأن الحديث يدور على قضية غامضـة تختلف حولهـا آراء الباحثين ، وليست مأساة معاصرة يعرفها الـكبير والصغير على السواء .

ولم يكن القصر يجهل ما للشيخ من صلابة فى الحق . واباءللضيم فقد ذاق فاروق من حملاته السـافرة قبل المشيخة وبعـدها ما ارق مضجعه وأزعج هدوءه . واذكر أن مجلة المصور قد نشرت تحت‌عنوان « مات الشيخ عبدالمجيد سليم » بتاريخ (١٤ اكتوبر سنة ١٩٥٤) مقالا منصفا عن الأستاذ الاكبر فألمت بكثير من مواقفه الرائعة .

وكان مما ذكرته ان الشيخ اذ كان مفتيا للديار المصرية تلقى‌سؤالا عن حكم الشرع فى رجل يراقص النسـاء ويشرب الخمر فى الحفـلات ويرتكب اعمالا يحرمها الاسلام . وقد أدرك المفتى ان المقصـود بهـذا السؤال هو فاروق . فقد كانت الجرائد آنئذ تتحدث عن حفلات‌ماجنة تقيمها (شويكار) احتفالا بمسرته ، ولكنه لم يتراجع ، بل اصدر فتوى جريئة وصف فيها المسئول عنه وصفا يشين ويجرح. ويقول المصور : ان الدوائر الرسمية والسـياسية قد اضطربت لهذه الفتوى واتصـل الملك السابق بالشيخ المراغى فطلب اليه ان يطلع منذ الآن على كل‌فتوى يصدرها الشيخ عبدالمجيد قبل السماح لها بالذيوع !

ولم تكد الأيام تمر على تربص حذر من القصر بالشـيخ وآرائه حتى حاول فاروق أن يعين المغفور له الاستاذ مصطفى عبدالرازق‌شيخا للأزهر . وكان القانون الرسمى للمشيخة لا يـسمح بذلك لان الاستاذ عبد الرازق على جلالة خلقه ووافر علمه وادبه ، لم يكن عضوا فى‌جماعة كبار العلماء .

كما أن تعيينه فى هذا المنصب الخطير ، يعتبر دفعا جديدا للأزهر فى اتون السياسة الحزبية المتصارعة !! لان الرجل عضو بارز فى حزب الاحرار الدستوريين ووزير ممتاز من كبار وزرائه ، وله فى السياسة هوى خاص يميل مع قوم دون آخرين ، فلا بد أن يكون عصره امتـدادا محتوما لسياسة الاستاذ المراغى فى الانضمام الى القصر وشيعته !

لذلك نجد الاستاذ عبدالمجيد نضر الله وجهه يرفض فى عنف‌هذا التعيين ! وقد استدعاه النقراشى (باشا) كما ذكرت مجلة المصور وحاول ان يغريه بالمال اذ كان للشيخ عدة آلاف من الجنيهات بوزارة المالية ، مكافأة شخصية على‌مشيخته للأحناف بالأزهر مدة طويلة، وقد تجمدت تلك المرتبـات بالوزارة لاعتراضها على أن يجمع الشيخ بين مرتبين فى

وقت واحد ! فلوح له رئيس الوزراء بصرف تلك الألوف المتجمعة سريعا اذا وافق على تعيين مصطفى عبدالرازق ففضب الشيخ فيوجهه غضبة ازعجته وصاح به فى انفعال : اتريد ان تساومنى فى الحق ؟ ثم خرج ساخطا دون استئذان ، ولم ييأس القصر بعد ، فأوفد اليه بعض رجاله يهدده بالعاقبة ويقول فى صراحة : ان معارضة الملك خطر عليك ! فقال الشيخ فى ايمان : أسيحول هذا الخطر بينى وبين المسجد ؟! فخجل رسول القصر ولم يجب ! وكان الشيخ جريئا حين أعلن نبأ هذه المحادثة بامضائه فيبيان أصدره للناس ! وهى من الذيوع بحيث لايجهلها مصرى واحد عاصر هذه الأحداث .

أما حملته على استهتار الملك ومجونه ، فقد كانت شديدة منكرة، ففى الوقت الذى تسابق فيه الزعماء الى تمجيد فاروق وتقديسه، كان شيخ الازهر يصيح صيحته الفاضبة :

« تقتير هنا وتبذير هناك » منددا بما ينفقه الملك فى كابرى من الكنوز على الخمور والقمار والنساء ! وكان رجال الحكومة اذ ذاك لا يسالمون الشيخ لاعتراضه الصريح على تدخلهم المنكر فى شئون الأزهر وتعيينهم اثنين من انصارهم فى مجلسه الأعلى ليقوما بتنفيذ رغباتهم الحزبية مهما أجحفت بالعلم والعدالة والمساواة ! فانتهزوا الصيحة الفاضبة وطاروا بها الى فاروق فأقيل الأستاذ من منصبه . وقد ثبتت محبته فى القلوب ، وما ضره عزل دنىء عن منصب رسمى يسمو بالشيخ دون أن يسمو به فهو من جلالة مكانه فوق المناصب دون استثناء !!

تلك دروس مثالية يجب ان تلقن للناشئة من أبناء الاسلام، لتكون موضع الأسوة الحسنة والقدوة المصطفاة ، وهى فى حاجة ماسة الى من يتناولها بالدرس والتحليل فى مؤلف مبسوط .

فهيهات أن يتسع المقال الواحد لغير السرد السريع ! على أنه لايحيط بكل ما كان ، بل ينتخب من الحوادث المتزاحمة ما يغنى عن سواه . ولن اغفل هنا موقفه الخالد من الملك فؤاد فقد حاول ان يستبدل ببعض ممتلكاته الجديبة ، أرضا مخصبة من أملاك الاوقاف . وتلمس الفتوى الميسرة من عبد المجيد فاعلن الاستاذ فى تحمس صادق ان الاستبدال باطل لانه لا يجوز لغير مصلحة الوقف ! وهى هنا مفقودة ، بل ان الخسارة متحققة ، وقد ملأ رحمه الله فتواه الرائعة بنصوص ثاقبة وافية قطعت كل اعتراض ، وتركت طاغية القصر من اطماعه المحرمة فى مأساة نكراء .

ان الرجل الأبى الذى يحتقر الآلاف المتجمدة فى سبيل مبدئه ،

ويضحى بالمنصب الرائع اذا جر الى ضياع مثله ليحرص كل الحرص على ان تكون موارد رزقه طاهرة مطهرة ، حتى فيما ضؤل وهان ! فقد ذكر استاذى الكبير احمد حسن الزيات بأحد اعداد الرسالة أن ادارة الترام قد أهدت الى فضيلته تصريحين بالركوب فى الدرجتين الأولى والثانية ، أولهما للشيخ وثانيهما لخادمه ، فحرم الأستاذ على نفسه أن يستبيح شيئا ما دون مجهود متكافىء وقد تسرع خادمه فاستغل التصريح مرة واحدة ! فغضب الشيخ وركب عربته حتى وصل الى محطة الترام واشترى تذكرة ثم مزقها دون استعمال ، ليؤدى عن الخادم ثمن ما استهلك !! وللباحث النفسى أن يجد فى هذا التصرف المتحرز مايكشف عن أطواء تلك الروح الطاهرة التى تتجنب الشبهات وتحرص على أن تكون مثالا مبرأ للمسلم الورع الأبى ونبراسا وضيئا للحقيقة المؤمنة بشتى صفاتها الساحرة من جلال العلم وعظمة الحق وقوة الايمان ، وبا لها من صفات .

مواقف خالدة لعلماء الأزهر

يداب كثير من المغرضين على اتهام الازهر ، واختلاق المثالب الشائنة لرجاله ، وهم اذ يلصقون التهم الآثمة بهم الصاقا يتجافى عن الحق والانصاف ، انما يهاجمون الاسلام نفسه من وراء ستار ليحققوا مآرب خبيثة لا يقدرون على البوح بها علانية ، ولا جرم فقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم اكبر .

وأعظم تهمة يمهدون لها بالعلل والأسباب هى دعوى تزلف الأزهريين للرؤساء من ملوك ووزراء والسير فى ركاب أولى الأمر مهما اعتسفوا الجادة وتنكبوا السبيل .

والعجيب المدهش حقا ان الذين يلوكون بأقلامهم هذا الهراء فى صحفهم الماجنة هم انفسهم الذين كانوا يدقون الطبول فى مواكب الفساد ، وحين تغيرت الاوضاع بعد الثورة اخذوا يتنصلون من فضائحهم المخزية ويتصيدون الشوائب للبررة الأتقياء حتى ليصدق عليهم المثل القائل « رمتنى بدائها وانسلت » !

ونحن اذا تصفحنا مواقف تاريخنا الحديث نجد لأعلام الازهر فى الذود عن الحق والوقوف فى وجه الباطل آيات رائعة يفوح منها الشذى العاطر وتؤكد وراثة الأنبياء فى قوم يخشون الله حق خشيته، ومن المؤسف ان هذه المواقف الخالدة — على كثرتها المشرفة — لم تجد من احصاها فى كتاب أو دونها فى تاريخ ، اذ أن الرهبة المرعبة من أصحاب النفوذ ساعدت على كتمان هذه المجابهات الصريحة ، الا ما تناثر على الأفواه من أحاديث تتخذ الحيطة الكاملة فى ترددها وتداولها بين الناس ، ومع هذا التكتم الصريح فقد وعت ذاكرة التاريخ مثلا رائعا لجماعة مؤمنة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من العلماء الأفذاذ !

وها نحن أولاء نسطر فى مقالنا بعض هذه الروائع الغالية ليعلم من لم يكن يعلم أن من علماء الأزهر من حملوا مشعل الحق فى الدعوة الى الله فأثبتوا لذوى الانصاف ان الروح القرآنية التى الهمت سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعمرو بن عبيد والأوزاعى وابن حنبل والعز بن عبدالسلام فى القديم هى نفسها الروح القوية التى سرت فى نفوس علماء الأزهر فواجهوا الباطل بلسان صدق مبين ونحن نسجل

بعض هذه المفاخر لا لنقول اولئك آبائى بل لنقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق .

لقد حكم محمد على مصر فى فترة عصيبة من تاريخها القريب فمن الذى احصى عليه اخطاءه وسجل نقائصه ، حتى تعرض لاقصى ضروب العسف والاضطهاد ؟ ان العالم الازهرى عبدالرحمن الجبرتى قد كان اول من سجل على الوالى الغاشم نوائبه وأخذ يتنقل بين المدن والقرى فارا من عذاب أليم يتهدده من أولى الأمر ، وقد تعرضت اسرته للاغتيال والحبس والاهانة . وظل المؤرخ الكبير يخط للاجيال المقبلة كلمةالحق سافرة حميدة دون ان يقعد به تحرش وارهاب . ولو أراد الرفعةوالجاه لسار فى موكب النفاق يختلق المحامد ويطلق بخور الثناء .

وقد اختلفت الآراء فى خاتمة حياته وأرجحها المؤكد انه لقى مصرعه مستشهدا فى سبيل الرأى الصريح ـ مما بسطنا الحديث عنه بالتفصيل فىمقال آخر ـ ومع انه كان فى صدر شبابه صديقا لعلى بك الكبير ومحمد بك ابى الذهب فقد سجل عليهم فى تاريخه العظيم ما رآه من المظالم ، وارتفع بالتاريخ الى مرتبة لا تجنح الى الاهواء والميول . فليذكر صعاليك الصحافة ما كتبوه بالأمس فى صحائفهم عن فاروق ليعرفوا من يسير مكبا على وجهه ومن يمشى سويا على صراط مستقيم .

هذا هو الجبرتى العالم الازهرى ابن العالم الازهرى ! وهناك معه عشرات من علماء الازهر جابهوا الباطل علانية دون استخذاء فلم تأخذهم ملامة فى جنب الله وبقيت احاديثهم العاطرة تعبق فى رحاب الاجيال ! .

هناك العالم الازهرى الجرىء الاستاذ حسن العدوى وقد شهد له الزعيم احمد عرابى فى مذكراته السياسية شهادة تزن ما على الارض من ثروة ومتاع ! لقد كان وزملاءه الأزهريين فى طليعة رجال المؤتمر الوطنى الذى أصدر قراره التاريخى بعزل توفيق وتكليف الزعيم احمد عرابى بالدفاع عن الوطن بعد ان قرئت على المجتمعين فتوى ازهرية اسلامية بمروق الخديوى وخيانته ، فكان لها اكبر الاثر فى هيجان الشعور المصرى ضد الحاكم الخائن .

وحين انتهت الثورة الى خاتمتها الأليمة تقدم الشيخ العدوى الى المحاكمة بجنان ثابت ووقار مهيب فسأله الرئيس : هل افتيت بعزل الجناب الخديوى ؟ فأجاب من فوره : لم تصدر منى فتوى بذلك ومع هذا فاذا تقدمتم الى بمنشور يتضمن هذه الفتوى فسأوقعه . ومالى وسعكم وأنتم مسلمون أن تنكروا أن الخديوى يستحق العزل لمروقه عن الوطن والدين ! يقول هذا وقد شحذ الباطل اسنته وحرابه لينكل

بالاحرار الباسلين ، فتتضاءل فى تقديره كل عقوبة ظالمة تتخيلها الأذهان ويرفع هامته فى ساحة المحاكمة عالية شماء !

هذا العالم الأزهرى الورع قد طلب منه فى أثناء زيارة السلطان عبد العزيز لمصر ضيفا على اسماعيل أن يقوم بتقليد رسمى كريه فينحنى الى الارض ثلاث مرات يأخذ فيها السلام الى رأسه ثم الى فمه ثم الى صدره ويخرج موجها صدره الى الخليفة وظهره الى الباب !

وتوقع ذوو الامر أن يفعل ذلك ولكنه اعتقد فى قرارة نفسه ان هذه التقاليد آثمة لاتنبع من روح الدين بل تعيد الوثنية ثانية فى امة شرفها الاسلام بالتوحيد والمساواة ، فسخر بكل ماسمع ، ودخل الى الخليفة مرفوع الرأس قائلا السلام عليك يا أمير المؤمنين ثم ابتدره بالنصيحة ودعاه الى تقوى الله والخوف من عذابه ! وهاج الخديوى واضطرم الغيظ فى صدره ولكن السلطان يعجب بما يرى ويخلع على الرجل حلة ثمينة ويقول للحاضرين : « ليس لديكم عالم سواه » (١)

هذه الروح الكريمة التى نفثها القرآن فى النفوس لم تقتصر فى أحلك عهود الطغيان على فرد او اثنين بل غمرت أناسا كثيرين عرفوا الله فعرفهم ، وان كانت مواقفهم الخالدة فقدت المؤرخ الجرىء فقد تناقلتها الأفواه لسانا عن لسان وحملت الصدور ما خافت أن تعلنه الطروس ومن الذى لايسمح بفضبة اسماعيل وقد توالت هزائم جيوشه فى الحبشة وامر العلماء بقراءة البخارى فما غيرت شيئا من الموقف فصاح بالعلماء : لستم من السلف الصالح فان الله لم يدفع بتلاوتكم شيئا ! فأجابه أحد العلماء : لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم » ، فانكسر الخديوى وسأل : وماذا صنعنا حتى ينزل بنا البلاء ؟ فقال العالم : أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يحل الربا ؟ أليس شرب الخمر مباحا ؟ أليس الزنا برخصة ؟ أليس كيت وكيت ؟ واندفع يذكر ماشاع بمصر من المنكرات ــ واسماعيل يسمع ويكظم ــ غير ما وجل ولا هياب (٢)

وهناك العالم الجليل الاستاذ حسن الطويل العالم الازهرى فقد كان من عزة النفس والثقة بالله على جانب رفيع ممتاز ! دخل عليه رياض باشا وهو يدرس لطلابه بدارالعلوم فما غير موقفه او بدل جلسته وحين هم

---

(١) من كتاب العدالة الاجتماعية فى الاسلام للاستاذ سيد قطب ص ١٦٨ وقد أثر أيضا بوقف الشيخ حسن الطويل من مقابلة توفيق

(٢) من أخلاق العلماء للاستاذ محمد سليمان ص ١٠١ .

الزائر بالخروج قال له الاستاذ : لماذا لا أكون وزيرا معكم يا باشا ؟ فدهش الزائر وقال : أى وزارة تريد ؟ فقال : وزارة المالية لاستبيح من أموالها ما تستبيحون (١) !! وكانت لطمة أليمة توجه الى حاكم أرستقراطى لم يألف التهكم والاستخفاف! فخرج ثائرا مهتاجا واستدعى ناظرالمعارف على مبارك ليعجل بفصله منوظيفته ولكن يدا أعلى من يد رياض باشا تقف فى وجهه فيتراجع عن غطرسته العاتية مدحورا وقد آثر ألا يزور مدرسة أو معهدا بعد ذلك !

هذا الرجل العظيم الشيخ حسن الطويل ، قد طلب منه أن يرتدى ملابس خاصة ليقابل بها الخديو توفيق · وحان الموعد المرتقب فجاء بملابسه المعتادة ومعه منديل يضم الملابس الرسمية ، ثم قدمها للخديو قائلا فى بساطة : ان كنت تريد الجبة والقفطان فها هما ذان ، وان كنت تريد حسن الطويل فهأنذا حسن الطويل !!، ثم قال الشيخ لجلسائه: كيف أتجمل لتوفيق بلباس لا أتجمل به لربى فى الصلاة ؟ وهذا لعمرى منطق اليقين الجازم والايمان العجيب !!

وهناك الاستاذ الانبابى شيخ الجامع الازهر . دخل عليه اللورد كرومر محييا فصافحهالاستاذ من جلوس فاستعظم اللورد ما صنعوسأله: ألست تقوم للخديوى ؟ فقال : نعم لان الخديوى ولى الامر، وهو منا ولست مثله لدينا فى شىء (٢) ولم يقل الشيخ ذلك تزلفا للخديوى فهو العالم الجرىء الذى جابه توفيقا وأفتى بعزله ومروقه دون تحفظ أو اكتراث · ولقد كان كرومر فى منعة عزيزة يتضاءل معها جاه خلفه الأخير « كلين » ومع الفارق البعيد بين الاثنين فقد رأينا رؤساء الحكومات ينكمشون ويتضاءلون جوار مايلز لامبسون ، ثم لايجدون من صحافة انيوم غير المديح والتنويه ·

وهناك الاستاذ الشيخ النواوى شيخ الجامع الأزهر · فقد أرادت حكومة مصطفى فهمى أن تضعف القضاء الشرعى اجابة لرغبة المعتمد البريطانى · فدعت لتعديل اللائحة الشرعية مستندة الى نفوذ المستعمر كعهدها فى حكمها الطويل البهيم ! ولكن الشيخ النواوى يحمل على المشروع بكلمة موجزة فتطير فى الامة كل مطير ويتأهب الكتاب لنقده نقدا جارحا فتتخاذل الحكومة وتؤثر الانسحاب بمشروعها الخطير(٣) ولو كان

---

(١) من اخلاق العلماء للاستاذ محمد سليمان ص ١٨١ .

(٢) من أخلاق العلماء للاستاذ محمد سليمان ص ١٨٢ .

(٣) مجلة الرسالة ص ١٦٣ السنة ١٥ نقلا عن فضيلة الاستاذ فرج السنهورى .

هذا الموقف لزعيم سياسى لظلت صحفنا « المتصفة » تردده بين الحين والحين ٠

ومن المدهش العجيب أن الذين يكتبون عن الاستاذ الامام محمد عبده يعز عليهم أن يعترفوا بمواقفه الخالدة من الحكام ويكثرون الحديث عن عمله وجهاده فى التربية والاصلاح ونشاطه الاجتماعى بل ربما اتهموه آثمين بمحاباة الانجليز والدعوة الى الاحتلال ! أما موقفه الخالد فى الثورة العرابية ونفيه الى الخارج فلا يحتاج الى تسجيل ٠ وأما مواقفه المتكررة من عباس فيجب أن يسحب عليها ذيل العفاء !

لقد أراد الخديوى السابق أن يجعل أموال الاوقاف بقرة حلوبا تدر عليه الأرباح من أيسر طريق ، فوقف الامام فى وجهه وقفة كشفت مطامعه للعيان ٠ وأدت الشحناء دورها فى قلب عباس فتعقب الامام فى كل طريق ناصبا مكايده الخاتلات !

لماذا عارض الخديوى اصلاح الأزهر ! ولماذا عارض اصلاح القضاء ؟ السبب واضح ، فالأستاذ الامام قد رسم المنهج ، وأعد الخطة ، وأثار الرأى العام ، فلابد أن ترجع مشروعاته بالخيبة والاخفاق ٠

لقد كتب الأستاذ الامام عن (محمد على رأس الأسرة الحاكمة) مقالا جريئا يبرزه على حقيقته أمام القراء ، فكان ثانى كاتب – بعد الجبرتى – فى مصر يصور بالعربية حقيقة هذا الحاكم السفاح ، وفى الوقت الذى احتفل فيه أساتذة النفاق بالذكرى المئوية «لساكن‌الجنان» منذ قريب!! كان هناك أزهرى ثالث هو العالم الأزهرى الداهية محمد الغزالى ينقل كلام الشيخ محمد عبده عن محمد على فى كتابه «تأملات فى الدين والحياة» ثم يشفعه بالتفسير والتوضيح !

ونحن ندعو القراء الى مطالعة ما كتبه محمد عبده والغزالى عن محمد على ، ثم ليقرءوا الأعداد الخاصة من الصحف والمؤلفات الضخمة من الكتب التى صدرت فى الذكرى المئوية (العزيزة!) تملقا لفاروق وارضاء للباطل وحينئذ يعرف القارئون من المتزلف المتملق ، أنحن أم هؤلاء !

وأخيرا تعالوا بنا الى العهد القريب لتعلموا ما صنع مفتى الديار المصرية السابق الشيخ محمد بخيت المطيعى رحمه الله فقد لطم الاستعمار لطمة قاسية حين أصدر فتوى دينية وطنية فى مقاطعة الانجليز فسرت مسرى النار فى‌الهشيم وبددت مانسج من الأحلام والامنيات ولقد كان الشيخ بخيت أكبر مفت للاسلام فى عصره ورفض ثروة مغرية قدمت اليه حين أصدر فتوى اسلامية فى وقف من الأوقاف قائلا كلمته الجليلة (العلم فى

الاسلام لا يباع) ولعمرى أن هذه الجملة الصغيرة على ايجازها العجيب ، قانون اسلامى خالد يجب أن يتردد ويذاع ليؤمن به المسلمون ويعملوا به .

هذه بعض المواقف الرائعة فى تاريخ الازهر ، ومن المؤسف ان يتعاون المأجورون على طمسها واخفائها ، فيحولوا دون شرف خالد للتاريخ المصرى يوشك أن يندثر بلا تسجيل !! واذا كان منهم من يريد أن يطفىء نور الله فالله متم نوره ، ولن يعدم الحق لســـان يقول : « هاؤم اقرءوا كتابيه » .

تم الكتاب

فهرس



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتبية   روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤

العـــدد ٥٥ الثمن ١٦ قرش